عبد اللطيف عاشور

سيف الله
خالد بن الوليد
للأطفال

دار الطلائع

عاشور عبد اللطيف
سيف الله خالد بن الوليد: للأطفال/ عبد اللطيف عاشور - ط١- القاهرة.
دار الطلائع للنشر والتوزيع 2017
٨٠ ص؛ ٢٤سم
تدمك: ١ ٨٢٠ ٢٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - قصص الأطفال
٢ - الصحابة والتابعون
أ - العنوان ٨١٣,٢
رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٦٧٥٢
الترقيم الدولي: 1 - 820 - 277 - 977 - 978

تصميم الغلاف الفنان: إبراهيم محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب دون إذن كتابي سابق من الناشر، وأية استفسارات تطلب على عنوان الناشر.

٣٢ شارع أحمد فخـــري
- مدينة نصر - القاهرة
تليفون: ٢٣٥٤٦٣٩٢ (٢٠٢ +)
فاكس: ٢٣٥٤٦٣٩٣ (٢٠٢ +)
E-mail : info@altalae.com
Web site: www.altalae.com

بين يَدَى «خالد»

ماذكرت معارك الفتْح الإِسلامى عامَّةً إلّا وتَقدَّمَتْها معركة «**اليَرْمُوك**»..!! وما ذكرت معركة «**اليرموك**» إلا وتصدرها اسم «**خالد بن الوليد**»- رضى الله عنه!

يقول بعض الدارسين والمحلِّلين بأن بعض الأشخاص من الناس يكون لهم من أسمائهم نصيب، في الأغلب الأعم. ولقد دخل سيدنا "خالد" -رضى الله عنه- تاريخ حركة الجهاد في سبيل الله من أوسع أبوابها ولم يمْض على إسْلامه إلّا القليل من السّنوات، فقد جاء إسلامهُ متأخرًا عن كثير من الصحابة - رضْوانُ الله عليهم - لكنّه بفَضْل صِدْق يقينه وإيمانه، وحسن إسلامه، وبما قَدَّرَ الله تعالى في شخصيته من معطيات، وبما جبله عليه من خلال ومميزات، وبما فتح عليه من فتوحات، أصبح ذكر «**خالد**» في أسفار التاريخ، وفي أَمْجَد الصَّفَحات وأنصعها وأكرَمها..

لا يغفل عنه كبير ولا صغير، ولا يجْهله أَحَد، حتى إنَّه ليُذكَرُ عِنْد الأعداء بكثير من التقدير والاحترام والإعجاب!! ويشغل حيزًا واسعًا من اهتمامهم، وتستقطب شخصيته وأعماله دراساتهم وتحليلاتهم، في المجالات العسكرية.. وفي أرقى المعاهد.

ونحن يسعدنا أن نقدم لأطفالنا الأعزاء شخصية البطل "خالد بن الوليد» في صورةٍ جديدةٍ، رغم ما كُتِبَ فيها قديمًا وحديثًا، ورغم انتشار تلك الكتابات، سواء الموسَّع منها أَوِ المخْتَصَر.

راجين من الله سبحانه وتعالى أن يتَقَبَّل عملنا هذا بقبولٍ حسن، وأَنْ يوفِّق أبنْاءَنا للتَّأسّى والاقْتداء بشخصيَّة «ابن الوليد» لأن الجهاد في سبيل الله ماضٍ إلى يَوْم القيامة، كما حدَّثنا رسولنا الأكرم ونبيُّنا الأعْظم ﷺ والله الموفق- والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا .. ﴾

لاشَكَّ أَنَّك - يابنى العزيز - قد قرأت آيات الله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا .. ﴾ [المدثر : 11 - 15].

وتساءلت: من هو المقصود؟

إنَّه «الوليد بن المغيرة المخزومى والدُ «خالد» - رضى الله عنه..

كان «الوليد بن المغيرة» من أَشْهَر بَطْن من بطون قبيلة «قريش»، من «بنى مخزوم»، وكان ثريًّا واسِعَ الثَّراء، حتى إنَّهُ كان يمنعُ الناس من أنْ يقدّموا طعامًا لأهل الموْسم القادمين من مختلف أنْحاء الجزيرة العربية، سوى طعامِهِ هو، أوْ توقَدَ نار، على طعام سوى ناره هو!!

ولقد رزقَهُ الله تعالى كثيرًا من الأبناء، حتى قيل إنَّهم عشرة من الذكُور، من بَيْنهم «خالد»، فكان «الوليد» يتيه بهذا كله ويفخر على الناس.

كما أوتى فصاحةً وبلاغةً وحسن مَنطق، يَحْفَظُ أشعار العرب وَسِيَرهم وَأَيّامهم، ويعْرف أحسابَهُم وأنْسابَهم.

عداؤه لِلإسلام

وحين أشرقت شمس الدَّعْوَة المحمديّة، كان «الوليد بن المغيرة» من الجاهليِّين الذين حاوَلُوا أن يطفئوا نور الله بأفواهِهِم، فوقف من رسول الله ﷺ ومن المسلمين الأوائل موقفًا عدائيًّا صارمًا وشديدا..

إِنَّهُ فكَّر وقَدَّر.. ثُمر قُتِلَ كَيْفَ قَدَّر..

في ذات يوم وقف النبى ﷺ بجوار «الكعبة» مَتَوجِّهًا إلى الله تعالى بالذِّكْر والدُّعاء، وتلا آيات من القرآن الكريم..

وكان «الوليد بن المغيرة» قريبًا مِنْهُ يَسْمَعُ قراءَتَهُ..، فَفَطِنَ النبىُّ ﷺ لاسْتِماعِه، فَأعاد ماكان يقرأ..!

انطلق «الوليد» إلى مَجْلس الأرهاط من «قريش» ثُمَّ قال لَهُم:

- والله لقد سَمِعْتُ كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا منْ كلام الجنّ، والله إنَّ لهُ، لحلاوة، وإنّ عليْه لطلاوة، وإنَّ أعلاهُ لمثمر، وإنَّ أَسْفَلَهُ لمُغدق، وإنَّهُ يعْلُو وما يُعْلى... ثم انصَرَف عنهم.

وظن الحاضرون السامعُون أن «الوليد» قد تَأثَّر بأَقْوال النبى ﷺ، وأنَّه قَدْ أَسْلَمَ..، فقالوا:

- لقد صَبَأَ «الوليد».. وَلَتَصبُونَّ قُرَيْش كلها..!

ثم أرسَلُوا لهُ «أبا جَهْل» يَسْتفْسره ويستوضِحُهُ، فعادَ مَعَهُ إلى مَجْلس القَوْم، وقال لهم:

- تزعمُون أن «محمدًا» مَجنون.. فهل رَأيتمُوه- يَخْنَقُ قَطّ؟؟ وتَزْعُمُون أنَّه كاهِن، فَهَل رأيْتُموهُ قطُّ تكهَّن؟ وتَزعُمُون أنَّه شاعر، وما فيكُم أَحدٌ أَعْلَم بالشِّعْر مِنّى، فَهَلْ رأيْتمُوهُ ينطق بشعرٍ قط؟ وتَزْعُمُونَ أنَّه كذّاب، فَهَل جرَّبتُم عليه شيئًا من الكذب؟!

وكانوا يُجيبونَهُ على كُلّ تساؤل بقولهم: كلا.. كلا.. فلمّا أعياهم، سألُوه رأيه...

فَفَكَّر.. قليلًا وقدَّر قليلًا، ثم قال:

- إنَّهُ ساحر.. أما رأيْتُمُوه يُفَرِّق بَيْن الرَّجُل وأهله وَوَلِده ومواليه؟ وهذا هُوَ السِّحْر المبين!!

يقول الله تعالى في وَصْف موقف «الوليد بن المغيرة» هذا:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾

[المدثر: 18 - 25]

نَشْأَةُ «خالد»

في هذا الجوِّ الحاشد، المحتقن.. بصور الغنى والجاه، والسطوة والسلطان واستبداد الرأى، والجاهلية العمياء الطاغية..، كانت ولادة «خالد» ونشأتُه.. ولقد أثر فيه ذلك كله.

وُلِدَ من أمّ هى «لُبابَةُ الصغْرى» بنت «الحارث الهلالية»، أمَّا «لُبابَةُ الكُبْرى» فهى زوجة «العباس بن عبد المطلب» عمّ النبيِّ ﷺ..، وكلا «اللبابتين» شقيقتا أمّ المؤمنين «مَيْمونة» -رضى الله عنها-، وَزَوْجُ النبى ﷺ.

نَشأَ «خالد» نشأة أبناء طبقة الأشْرافِ والسادة من قريش، فتعلم القراءة والكتابة، وحفظ الشعر ورواه، وكان جَلْدًا قويا فأَلِف الفروسيَّة وركُوب الخيل وارتياد الصَّحْراء؛ وتَدَرَّب على فُنُون القتال حتى أتْقنها وَبَرز فيها، وأضْحى عَلَمًا من أعلام قَادة حروب «قُرَيْش» ومعاركها؛ فأوكلت إليه مسؤولية خيلها وفرسانها؛ وهو في سن مبكرة.

وعلى نهج أبيه «الوليد» في معاداة الإسلام سار «خالد»، فكان متَعَصِّبًا تعصّبًا أعْمى عن الحقّ، متأثرا بنزعة الآباء والأجداد في تقديس الأوْثان والأصنام، ساعيًا في صَدِّ الناس.

في يَوْم «أُحُدٍ»

تَعْرف - يابُنيَّ العزيز- أنَّ المشْركين قد أصيبُوا بهزيمة نكراء يوم «بدر»، وَقُتل مِنْهم ما يزيد على السَّبعين رجُلًا من أفْذاذهم وكُبرائهم، أمثال «أبى جَهل» - [عمرو بن هشام]؛ و «أُمَيَّة بن خَلَف» و «عُتبة بن ربيعة» وغيرهم..

ولَقَدَ وَلَّد ذلك في نفُوس القرشيّين حقْدًا مضاعَفًا على الإسلام وأَهله، فبيتوا الثأر، وأعدوا العدة، وانتؤوا أن يهاجموا المسلمين في عقر دارهم، في المدينة المنوَّرة..

فلما بلغوها نزلوا عند جبل «أحد» في ضاحيتها، بجموعهم..، وخَيلهم ورجْلهِم.

ولقد كان من خطَّة دفاع النبى ﷺ أَن لا يخرج المسلمون من المدينة، بل يتَحَصّنوا فيها ويُقاتِلوا عَدُوَّهُم.. ولكنَّ طائِفةً من شباب المسلمين وفرسانِهم المتحمسين إلى القتال، عزموا على رسول الله ﷺ أن يَخْرُج بهم لملاقاةِ عدوّهم، حتى لايقال بأنهم جبنوا وخافوا..

وإزاء إصْرارهم وتَشَبُّثِهم بموقفهم وافقهم - عليه الصلاة والسلام - مكْرَهًا..، وخَرَج بهم في سَبْعمائة مقاتِل، وقد وَضَعَ خطته للقتال..، فَجَعَلَ عنْدَ رَبْوَةٍ مرتفعة أربعين من رماة السهام، ليحْموا ظَهر المسلمين، وأَمَرَهُمْ أن لا يُغادروا أماكِنهم ومواقعهم، سواء كان النَّصْر أم كانَتِ الهزيمة.

مفاجَأَةُ «خالد»

يَوْم «أحد» هُوَ أَوّل أيّام «خالد» في مواجهته للمسلمين في ميادين القتال...، وأول إطلالةٍ لهُ على مَسْرح الأَحْداث..

فما أن تحقق المسلمون من النَّصْر، بعد المبارزات التى جَرَتْ أَوّلًا ثم الالتحام ثانيًا، وقد وَلّى المشركون في الميدان، حتى غَرَّت الرُّماة الأسلاب والغنائم..، وتحفَّزَت نفوسهم لاقتناص حِصّتهم غير مبالين بتحذيرات النبى ﷺ لهم، ثم إنَّهم لم يعبئوا بتحذيرات قائدهم «عبد الله بن جُبَير» فَتَركوا مواقعهم.

فلما رأى ذلك «خالد» - وكان على خَيْل المشركين - وكانت المفاجأة المذهلة التى حولت النصر إلى هزيمة، والتى حذرهم منها رسول الله ﷺ..

وَأَيَّة هزيمة!!!

لقد كانَتْ مَذْبحة قضت على ما يزيد على سبعين شهيدًا من خيار الصحابة رضوان الله عليهم، على رأسهم «حمزة بن عبد المطلب» - عم النبى ﷺ، وحامل لواء المسلمين، والداعية الأول «مصعب بن عُمَيْر»!!

يَوْم «الْحُدَيبية»

ونحن نتحدَّثُ عن يوْم «الحديبية» الذي كان في السنة السادسة من الهجرة، والذى يعتبر مفصلًا هامًّا في مسيرة حركة الدَّعْوة..، لايَسعُنا أَنْ نَمُرّ على يَوْم «الخندق» دُونَ أن نَذْكُر موقف «خالد» فيه أيضًا..

لقد كان على عادته - يقودُ خيل «قريْش»، ومعه «عِكْرِمَةُ بن أبى جَهْل»، ولكنَّ الأَحزاب جميعًا لم تستطِعْ أنْ تفعلَ شيئًا إزاء تَحَصُّنِ المسلمين وراء الخنْدق..

وحاوَلَ «خالدٌ» في أكثر من مرة أن يجد في الخندق ثَغْرةً ضيِّقة تُساعِدُهُ في القفْزِ بالخَيل إلى خطوط دفاع المسلمين واقتحامها، ولكن.. من غَيْر جَدْوى.

وكفى الله المؤمنين القتال، وَنَكَصَ «الأحزاب» على أعقابِهِم لم ينالُوا خَيْرا.

ونعود إلى «الحديبية».

مَرَّت أيامٌ وشهورٌ وأعْوام.. و «خالد» لا يزال على شِرْكِهِ وكفره، ثم نزل المسلمون في «الحديبية» بين «المدينة» و «مكة».. وهم في طريقهم إلى بَيْتِ الله الحرام لأداء العُمْرة غير ساعين إلى قتال أو حَرب؛ يَسوقون معهم الهدْى.

لكنَّ «قريشًا» أبَى عَلَيْها كبْرها وغرورها وخُيلاؤها أنْ تَتْرك المسلمين يدخلُون «مكة» مُعتمرين، ومُعَظمين لبيت الله الحرام..، وأَنْذَرَتْ بذلك وهَدَّدَتْ وتَوَعَّدَت.

ولقد خرَج «خالد» في ذلك الْيَوْم على قيادة مائتيْن من فرسان قريش، كطليعة لقوات المشركين، يحامى دُون تَقدّم المسلمين إلى «مكّة».

فكان يُواكبُهم في سَيْرهم من بعيد، غير بادئ بقتال.. حتى نَزَل رسُول الله ﷺ والمسلمون عند بئر «الحديبية».

أما الذى يهمّنا يابنىَّ العزيز من هذا الحديث، هُو أنَّ كثيرًا من الَّذين تَعَرَّضُوا للكتابة عن «خالد» - رضى الله عنه - اكتفوا في مَوْضُوع إسلامِهِ بالإشارة إلى كتاب أخيه «الوليد» الذى يحثُّه فيه على الإسلام، ويدعُوه فيه إلى الايمان، ويرغّبه في الأمْر مُشيرًا إلى ما كان يُردّدُه رسُول الله ﷺ عَنْ رغْبتِهِ في إسلام «خالد» وتَقْديمِهِ على الكثيرين.

إلإيمان والجهاد في سبيل الله

الإيمان والجهاد صنوان لا يَفْتَرقان...!

هكذا الإسلام!!

ولَئِنْ كان لرسالة «الوليد بن الوليد» أثرها في نفس «خالد» -رضى الله عنه- وانحيازه إلى الإسلام، فإنَّ يَوْم «الحديبية» كان لهُ أَثَرُهُ أيْضًا، بَلْ هُوَ في نَظَرنا المحرِّك الأوّل، والباعث الأول.. والحافز الأول.

كان «خالدٌ» -رضى الله عنه - من الفُرْسان الشُّجعان، والأبْطال المشهود لهم بطُول الباع في ميادين القتال، بالإضافة إلى عبقريته العسكرية القيادية، يعرف كيف يَرْسم الخطط، ويُحكم التَّدْبير، ثم ينَفّذ.

إذًا.. كانت العسكريَّة تَمْلك عَلْيه كُلّ تفكيره، والفَرَسُ والسَّيْف هُما مادَّةُ قُوته وغِذَاءُ رُوحِهِ وعَقْلِهِ.

صلاةُ الْخَوْف!!

إن صورة صلاة الخوف التى صَلاها رسُول الله ﷺ بالمسلمين، بحيْث يؤدّون عبادة رَبِّهم وهم غَيْر غافلين عَنْ عدوِّهم..

قلوبهم وأرواحُهُم مع الله تعالى، وأيديهم على مقابض سيوفهم..!! هذه الصّورة التى تَسْمو بالإيمان والجهاد معًا إلى البارئ عَزَّ وَجَلّ، حرَّكتْ نَفس خالدٍ ... وهَزَّتها..، ولقد - حدَّث نَفْسَهُ عَنْها، واستشعَرَ من خلالها عَظَمَة الإسلام.

وبدأ شَيطانُ الكُفْر ينهزم فى قلْبه وعَقْلِه، ويتضاءَل..، حتّى جاءَه بعد ذلك كتابُ أخيه «الوليد بن الوليد» الذى سَبَقَهُ إلى الإسلام، فكان يَوْم الْحَسْم، اليوْم العظيم المشهود في حياة «خالدٍ» - رضى الله عنه - يَوْم إسلامِهِ..

إسلامُهُ - رَضِىَ الله عَنْه

كان «الوليد بن الوليد» - أخو «خالد» - رضى الله عنهما- قد أَسْلَمَ بعد «بَدْرٍ» ولقى من أبيه وإخوته وعشيرته عنتًا شديدا، حتى إنه حبس وقيد

بالسلاسل، ومنع عنه الغذاء والماء، وكان معه في محبسه؛ وقد استطاع ذات يوم أن يتخلص من قيوده ويفر إلى المدينة، ملتحقًا برسول الله ﷺ والمسلمين.

وفي ذات يوم، ردد عليه الصلاة والسلام قوله الشريف:

- مَنْ لِي بـ"عياش بن ربيعة"..

ثم قال:

- والمستضعفين بـ«مكة»!!؟

فقال «الوليد»: أنا لها يارسُول الله.

ثم انطلق حتى أتى «**مكة**»، وتحيَّن فرصة سكون حركة الناس في الليل، واقترب من المكان الذى يحبس فيه صاحباه، واطلع عليهما، ثم دخل الغرفة، وحاول تخليصهما من أغلالهما فلم يفلح، فأتى بحجر كبير[1]، ثم وَضَع السلسلة التى تربطهما فَوْقه، وضَربَهَا بسيفه فقطعها، ودُعِيَ منذ يومئذ: «ذو المرْوَة».

وخرجوا جميعًا تحت جنح الظلام متجهين إلى المدينة..

وفي الطريق، عثر «الوليد» فأصيب ببعض الرضوض والجروح، خاصَّة أحد أصابعه التى نزفت كثيرًا، فكان يردد:

ما أَنْــتِ إلا أصبَـعٌ دَمِيتِ وفي سبيل الله مـا لَقيتِ

أيْن «خالد»؟؟

ولقد كانَتْ فَرْحة رسول الله ﷺ والمسلمين عظيمة بخلاص هؤلاء المستضعفين من الأَسْر والعذاب.

كما أن رسول الله ﷺ كان يُوَجّه كلامَهُ إلى «الوليد»، أكثر من مرَّةٍ متسائلًا:

(1) يسمى المروة: أي الصخر.

– أيْن «خالد»؟؟ وهَلْ مِثْله من يَجْهل الإِسلام؟؟ لو جاءنا لقدمناه على غيره!!

فكان «الوليد» يقول، والحسْرةُ على أخيه تأْكُلُ قلْبَهُ:

– يأتى به الله يارسول الله.

ثم كتب كتابًا إلى «خالد» يقول فيه:

أمّا بَعْد، فإنى لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عَقْلكَ، ومثل الإسلام يجهله أحد؟؟

سألنى رسول الله ﷺ فقال:

– أين «خالد»؟

فقلت : يأتى به الله.

فقال:

– ما مثل «خالد» يجهل الإسلام!! ولو كان جعل نكايته وحدة مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ولقدمناه على غيره.

فاستدرك يا أخى ما فاتك منه، فقد فاتك مواطن صالحة.

الخروج العظيم

تلقَّى «خالد» كتاب أخيه «الوليد»، وكان – رضى الله عنه، قد عُبِّئ نفسيًا، وبرقَت رُوحه ببارقة الإيمان والإسلام، وآن الأوان.

فاتفق مع «عثمان بن طلحة» على الخروج إلى «المدينة» وإعلان «الإسلام» بين يدى رسول الله ﷺ.

وفي ضاحية من ضواحى «مكة» تدعى «سَرِف» التقى «خالد» و«عثمان ابن طلحة» بـ«عمرو بن العاص»،..

وسأَل بعضهم بعضًا عن مقصدهم؛ فلم يكتموا..، واتفقوا على الصحبة والرفقة.

بَيْن يَدَىْ رسول الله ﷺ

ولا تَسَلْ يابنى العزيز عن فرحة المسلمين بقدوم الأبطال الثلاثة، ولقد أثر عن رسول الله ﷺ أنه قال عندما رآهم.

- لقد أَلقَتْ إليكم «قريش» بأفلاذها.

وأسَلَمَ «خالد» -رضى الله عنه- ودَخَلَ في دين الله، وحَسُنَ إسلامُهُ، وانتظَم في مَوْكب الإيمان، وانخرط في صفوف المجاهدين في سبيل الله، يقاتلُ أعداء الدين بحماس أشَدّ وأقْوى مما كان يقاتل به قبل ذلك.

أوَّل الميادين

أرسل النبى ﷺ رسولًا له إلى «الحرث بن أبى شمر الغسّانى»، فَقَبضَ عَلَيْه «شُرَ حبيل بن عَمْرو» وقتله، فاستاء «عليه الصلاة والسلام» من ذلك وأعد العدة لتأديب «شر حبيل»؛ والاقتصاص مِنْه.

فأَرْسل جَيْشًا قوامُهُ ثلاثة آلاف من المسلمين إلى تُخُوم الشّام، ومن الطريف الجدير بالذكر أن النبىّ ﷺ قد أمَّر على هذا الجيش ثلاثَة من الصّحابة، بالتَّتابُع، هم: «زَيْد بن حارثة» و «جعفر بن أبى طالب» و «عبد الله بن رواحة»..

- إن قُتِل «زيد» فـ «جعفر» هو القائد والأمير، وإن قتل «جعفر» فـ «عبد الله» هو القائد والأمير، فإن قتل «عبد الله» اتفق المسلمون على من يولونه عليهم.

وكانت هذه أول مرة في تاريخ سراياه ﷺ يسمى فيها أكثر من قائد للجيش، وكأنه عليه الصلاة والسلام قد أوحي إليه من الله تعالى، أَوْ أَلهِمَ بمَصْرع واستشهاد هؤلاء الأبطال!!!

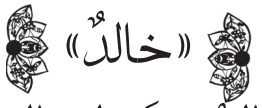

من الجُنديَّةِ إلى القيادة

خَرَج «خالد» - رضى الله عنه- مع الجيش الإسلامى إلى الشام، حتى وَصَلوا إلى مكان يدعى «مُؤتة»، وهناك التقوا بجموع الروم، وكانت كثيرة كثيفة، عُدَّة وعَدَدًا..

تَردَّدوا أولًا عن القتال، ريْثما يراسلون النبى ﷺ ويستشيرونه ويستمدونه..، لكنَّهم بعد تشاوُر سريع قرروا أن يُواجهُوا عدوَّهَم متوكّلين على الله.

وأبْلى كل من القادة الثلاثة «زيْد» و«جعفر» و«عبد الله» أحسَنَ البلاء، وثبتُوا في وَجْه الأعْداء..، وسقَطوا في مَيْدانِ المعركة واحدًا إثْر الآخر..

وكان «خالدٌ» - رضى الله عنه- يخوض القتال- مُخترقًا صُفُوف العدو، يضربُ بسيفه رؤوسَ الكفر والشِّرْك، فَيتْرُكها مُلقاةً فوق الثَّرى.. يَتحَرَّك في الميدان وفق الخطة التى يرسمها القائد...

فلما كان استشهاد «عبد الله بن رواحة»، آخر القادة الذين سماهم رسولُ الله ﷺ..

اجْتمع قادة الأفرع والأركان، وسادة القبائل المقاتلين، وتشاوَرُوا.. وتباحَثُوا..، ثُمّ اتّفَقُوا على اختيار «خالد» لَتولى القيادة!!

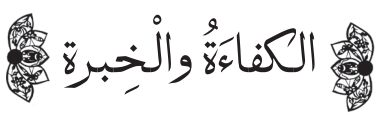

وَقَلَب «خالد» خطة القتال المتبعة رأسًا على عقب!!! لقد غير تنظيم الجيش الإسلامى، فجعل مقدمته مؤخرة، والمؤخرة مقدّمة، وجعل الميمنة

ميسرة والميْسرة ميمنة..، ورفع النساء اللواتى كن يرافقن الجيش في مكان قصيّ بعيد، خلف الجيش،وطلب إليهن أن يَنْكُثْنَ الأرض ويثرن الغبار.. بالعصيّ والأخشاب.

وكان غرضه من كل ذلك إيهام العدو بأن المدد قد وصل إلى المسلمين .. وبأن مددًا آخر في الطريق!!!

لقد قضى ليلته تلك ساهرًا ينظم ويُدَبّر، ومع ابتلاج الفجر كانت تكبيرة «خالد» إيذانًا ببدء القتال، واندفعت القوات الإسلامية إلى الميدان.. وواجه جند الروم وجوهًا جديدة غير التى كانت بالأمس وقبله، ورأى قائدهم الغبار المثار من وراء الكثبان الرملية البعيدة وظنَّ أنَّ مَدَدًا قد جاءَ المسلمين أثناء الليل، وأنَّ مَدَدًا آخر يثير بِسَنَابِكِه وحوافره الغُبار.. ويستعد لخوض المعركة.

وحيث إن جيش الروم الذى كان يزيد عدده على مائة ألْفِ مقاتل لم يسجل على المسلمين هزيمةً، ولم يزحزحهم عن مواقعهم، رغْم استشهاد القادة الثلاثة – رضي الله عنهم.

وبسبب نجاح خطة «خالد» بإيهام العدوّ بالمدد الذي أتى المسلمين أعطى قائد الروم أوامره لجيشه بالاستعداد للرحيل، بعد أنْ آذَنَتْ شمس ذلك اليوم على الغروب.

وقد أبْلى «خالد» ومن معه في ذلك اليوم المشهود بلاءً عظيمًا، حتى إن الله تعالى قد جَلّى وقائع المعركة صفحة ناصعة واضحة بكل معالمها وأحداثها أمام بصيرة رسول الله ﷺ.. في المدينة..، فقام «عليه الصلاة والسلام» يخطب في المسلمين، وينبئهم بما حَدَث ويشيد بذكْر «خالد» وكفاءته وخبرته، ويمتدحُهُ..

وفي موْقفه هذا، ﷺ سمّى «خالد» سيْفًا من سيوفِ الله، إذ قال: [«خالد» سيف من سيوف الله، نعم فتى العشيرة].

وعاد المسلمون من «مُؤْتة»...

وخَيَّم على المدينة المنوَّرة جَوٌّ من الحُزْن والكآبة لما فَقَدُوه من قادَةٍ أبْطال، وكان حزْنُ رسول الله ﷺ عليهم كبيرًا وعظيمًا..، وبَشَّر النبيُّ «عليه الصلاة والسلام» بِدُخولِهم الجنَّة كفاءَ ما بَذَلُوا من دماءٍ وأرواحٍ في سبيل الله.

لقد خَرَج «خالد» -رضى الله عنه- مع الجيش جُنْديًّا عاديًّا، وعاد قائدًا فَرَضتْه الأحْداث والوقائع، بتدبير من الله تعالى وتقدير.

ومنذ ذلك اليوم بدأ نجمُهُ يَسْطَعُ ويَعْلُو، ويأخُذ طريقه إلى مصاف القادة الذين يثق بهم رسول الله ﷺ، ويعتمد عليهم في قتال عدوه.

فَتْحُ «مَكَّة»

نقضت قريش «عهد الحديبية» بعد مرور سبعة عشر شهْرًا على توقيعه، إذْ ساعَدَت «بنى بكْر» على «**بنى خزاعة**» حلفاء رسول الله ﷺ، وحضر إلى «**المدينة**» «**عمرو بن سالم**»- الخزاعى- يشكُو إليه ماحَدَث، ويقول:

يـــارَبُّ إنِّـــى ناشِد «محمدا» حلْف أبيه وأبينا الأتْـلـدَا
قد كُنتم وُلْـــدًا وكُنّا والدا ثمَّة أسلمْنا فلم ننزع يدا
فانصُرْ رسول الله نَصْـرًا أبدا وادْع عباد الله يأتُوا مَـدَدا

إلخ...

فبشره رسول الله ﷺ بالمساعَدَة والتأييد والنّصْرة، دوُن أَنْ يُحدّد الكيفية، مكانا وزمانًا، وجَلُّ ما قال له:

- [نصرت يا عمرو بن سالم].

وخَرَج النبىّ ﷺ بالمسلمين إلى «مكة» في جيش كثيف، بَلَغَ عَدَدهُ عشرة الآف مقاتل، وكان ذلك في شهر «رمضان» في العام الثامن للهجرة..

ولقد تولى «خالد» -رضى الله عنه- يَومذاك قيادة جناح الجيش الأيمن، ومَعَهُ من قبائل العَرَب «أَسْلَم» و «سُلَيْم» و «مُزَيْنة» و «جُهَيْنَه» وغيْرهم.

ودَخَلَ «**مكّة**» من أَسفلها، من ناحية تدعى «**اللَّيْط**»، وهُناك صادفَهُ جماعَةٌ من شاب «**قريش**» وجهالها أبوا إلا أن يقاتلوا، رغم نداء «**أبى سفيان**» بالأمان بين الناس، كما كلَّفَهُ رسول الله ﷺ وعَهَدَ إليه.

ولم يستغْرق القتال وقْتًا، فقد حَسَمَهُ «**خالد**» على وَجْهِ السُّرْعة، ووافى رسُول الله ﷺ عند «البيت الحرام».

إلى «بَنى خُذيْمَةَ» «مِنْ «كنانة»

بَعْدَ فَتْح «مكّة» أَرْسَلَ رسُول الله ﷺ - «**خالد**» **رضى الله عَنْهُ - إلى «بنى خذيمة» من قبيلة «كنانة»** يَدْعُوهم إلى الإسلام ويخبرُهم بإسْلام قرَيْشٍ ودخُولها في دين الله...

ولم يرْسِلْهُ مُقاتلًا يغزوهم في ديارهم..

فلما وَصَلَ «**خالد**» إلى ديارهم، أنذرهم بما جاءَ من أجله، وأنبأهم بما كان من قريش».

إلا أنَّ أَحَدَ زعمائهم رفض الاستجابة إلى نداء «**خالد**»، وقال لقومه - ياقوم.. إنَّهُ «خالد بن الوليد» فوالله ما بعد ترك السلاح إلا الأسْر، وما بعد الأسْر إلا أنْ تُضْرب أعناقنا...

لكنَّ الأكثريَّة لم يوافقُوهُ على رأيه، وما زالُوا بِهِ حتّى ألقى السلاح وجَنَحَ إلى السّلْم مع الآخرين.

فلَما وطئ «خالد» ديارهم، ودَخَل فيهم، قَبضَ على جماعة منهم، فيهم الرَّجُل الذي أبى الاسْتسْلام والإسلام، فقَيَّدَهم ثم ضَرَب أعْناقَهُم؛ فلما وصَلَتْ أنبَاءُ ذلك إلى رسول الله ﷺ رَفَع يَدَيْه داعيًا قائلًا:

- [اللهُمَّ إنّى أَبْرأ إليَك مِمَّا صَنَعَ «**خالد**»..]

ولعل «**خالدًا**» رضى الله عنه- قد اجْتَهَدَ رأيه في هذا الموقف، وتصرف حسبما اجتهد ورأى.

غير أنّ هذه كارثة لم تؤخر «**خالدًا**» عن صفوف قادة النبى ﷺ الموثوق بهم، ولم تحجبه عن تقدير النبى - عليه الصلاة والسلام - له، والدليلُ على ذلك أنه ﷺ قد كلَّفَهُ إثْر ذلك هَدْم صَنَم «العُزّى» التى كانت «قريش» وغيرها في القبائل تقدّسه وتعظمُهُ.

خالِدٌ يَهْدِمُ صَنَم «الْعُزّى»..

وكانت «العُزّى» صَنَمًا في بَيْتٍ بمكانٍ يدعى «نخلة»، تعظمهُ «قريش» و «كنانة» و «مضَر»...

فأرسل رسول الله ﷺ «خالدًا» في سرية إلى ذلك المكان يهدم الصنم والبيت معا.

فلما علم حاجب «بيت العزى» بقدوم «خالد» في قوة من المسلمين ترك المكان بعد أن علق في عنق «العزى» سيفًا، وخاطبها قائلًا:

أيا «عزُّ» شدّى لاشوى لها[1] على «خالد ألقى القناع وشَمّرِى
أَيا «عزّ» إن لم تَقْتُلى المرء «خالدًا» فبُوئى بإثْم عاجلٍ، أوْ تَنصَّرِى

وقصد سادنها أحد الجبال فرارًا من «خالد» والمسلمين.

(1) أي لا تُبقى على أحد.

فلمّا انتهى اليها «خالد» - رضى الله عنه - هَدَمها، وسوّاها بالأرْض، وجَعَلها أثَرًا بَعْد عَيْن.

من «حُنَيْن» إلى «أَوْطاس» و «الطائف»

وخَرَج «خالدٌ» مع رسُول الله ﷺ، وتحت لوائه، إلى «حُنَيْن»، وفيها بَرَزَ إيمان «خالد» وإسلامه على حقيقته الناصعة الجليَّة، فلم يَفرَّ من الميدان مع الفارّين، بل ثبت وقاوم، ونافحَ عن دين الله وعن رسول الله، بكلّ ما أوتى من عَزْم صادق، وجَلَدٍ.. وشجاعة وجَرأة.

ثُمّ تابَعَ مَسيرتَهُ إلى «أَوْطاس» ثم إلى «الطائف»، مستظلا راية رسُول ﷺ..، وقيادَته؛ في كُلّ من المواقف والمعارك خلاصة تجربته في القتال والإيقاع بالعدو؛ والتغلُّب عليه.

في «تَبُوك»

من خلال المرْحلَة التى عاشها «خالدٌ»- رضى الله عنه- بعد إسلامِهِ في كنفِ رسُول الله ﷺ، مُجاهدًا مخلِصًا لرفع راية الإسلام، مقدامًا جريئًا لا يتهاوَن ولا يتراجَع، وينفِّذ كُلّ ما يكلفه به النبى ﷺ..، يَبْدو لنا أنَّ «خالدًا» قد أخذ عن جدارة وحقّ موقعه بين القادة الذين كان يعتمدهم رسول الله ﷺ في قتال أعْدائِهِ، حتى إنه قدَّمه على غَيْره، في كثير من الأمُور، وهذا - والحقّ يُقال - مصداقُ ما عناه رسُولُ الله ﷺ حين قال ل «الوليد بن الوليد»:

- لو جَعَلَ نكايَتَهُ في أعداء الله لَقَدَّمْناهُ على غَيْره.

ومن أَصْدَق وأوْفى بالكلمة والفِعل من رسول الله «محمد بن عَبْد الله» ﷺ!!!

ففى يَوْم «تَبُوك»[1]، وبَعْد أن بَلَغَها رسول الله ﷺ، بجهد وعسر ومشقة، إذ قلَّ الركُوب والغذاء، وبَعُدَت الشُّقَّة، وظهَرَ النفاق ونجم..، وعانى المسلمون الصادقون في عسرتهم أشَدَّ المعاناة ..، وكان «خالدٌ» - رضى الله عنه- من الصادقين، والمجاهدين.. المؤمنين، الساعين ولو إلى أقصى الأرض رفعًا لراية الدّين، وإعْلاء كلمة رَبِّ العالمين...

في ذلك اليوم، وفي تلك الآونة، وحيْثُ لم يجد رسُول الله ﷺ عَدوَّه من الروم وحلفائهم..، اختار «خالد» -رضى الله عنه- ليقود سرية من المسلمين إلى «دوْمة الجندل» القريبة من «تَبوك»، ليغزُوها، ويلقى القبض على صاحبها «أكيْدر بن عَبْد الملك».

وقال ﷺ لخالد:

[إنك ستجِده يَصيدُ البقر]

أي بقر الوحْش...

وصَدَقت فراسة النبىِّ «عليه الصلاة والسلام»، لأنَّ البقر الوحشى يكثر خروجه ليلًا، خصوصًا في الليالى المقمرة.

فلمّا قدم «خالد» بقواته إلى «دومة الجندل» وأضحى قريبًا منها، كان «أكيْدر» وزوجته يطلان من إحدى شرفات السُّور على البقر الذى انتشر هنا وهناك...، حتى إنه كان يحك بقرونه أبواب الحصن، فقالت له امرأتُهُ:

هل رأيت مثل هذا قط؟

فقال:

لا والله...

فقالت تشجعُهُ على الخروج والصيد: فمن يترك هذا؟

(1) كانت في العام التاسع من الهجرة وفي شهر رَجَب الفَرْد.

قال: لا أحد...

ثم نَزَلَ وأمَرَ بفَرَسِهِ فأسرج له، وركب معه نفر في حاشيته وأهل بيته، فيهم أخوه «حسان»، وراحوا يطاردون البقر.

عندئذ تلقتهم خيل المسلمين بقيادة «خالد» -رضى الله عنه-، وأحاطوا بهم فاستسلم «أكيدر»، وقتل «حسان» بعد أن قاتل، وكان على «حسان» قباءٌ من ديباج[1] مخَوَّص بالذَّهَب، فاستلبه «خالد» وأرسله مع أحد فرسان المسلمين بشيرًا إلى رسول الله ﷺ.

ثم قدم «خالد» يجرّ «أكيْدر» وقد قَيَّده بالسلاسل وأوْثَقَهُ رباطًا، على رسُول الله ﷺ، فحقن «عليه الصلاة والسلام» دَم «أكيْدر» وصالحَه على الجزية يدفعها سنويًّا للمسلمين.

وهكذا تجد - عزيزى القارئ - أنَّ قتال «خالد» لـ«أكيْدر» «دومة» هُوَ القتال الوحيد الذى حَدث يوم «غزوة تبوك».

وهكذا - أيْضًا- كان «خالد» - رضى الله عنه- طوال مصاحبته للنبى ﷺ موضع ثقته، يقدر فيه الكفاءة، ويبوِّئه مركز القيادة.

إلى «بنى الحارث بن كعب» ثُمر الحجّ مَعَ رسُول الله ﷺ

قَبْل الحجِّ، بَعَثَ رسول الله ﷺ «خالدًا» إلى «بنى الحارث بن كعب» بـ«نجران» على حدود اليمن، يَدعُوهم إلى الإسلام.

وهى واقعة جديرة بالذِّكْر والدَّرْس والاعتبار.

لقد بعثه «عليه الصلاة والسلام» وأمَرَهُ أن لا يقاتل القوم قبل ثلاثة أيام، فإن أسلمُوا قبل منهم، وإن رفضُوا قاتلهم.

(1) الحرير المموَّه بالذهب.

فخرج «خالد» حتى قدم عَلَيْهم، فَبَعَثَ الرُّكْبان يضربُون في كل وَجْه، ويدْعُون إلى الإسلام، ويقولون: أيها الناس أَسْلِمُوا تسلمُوا..

فأَسْلَمَ أكثر الناس، ودَخَلوُا فيما دُعُوا إليه، فأقام فيهم «خالد» - رضى الله عنه- يعلمُهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه، كما أَمَرَهُ رسول الله ﷺ.

ثُمَّ كَتَب «خالد» إلى رسُول الله ﷺ كتابًا يقول فيه:

[بسم الله الرحمن الرحيم. لـ «محمد» النبى، رسول الله، من خالد بن الوليد:

السلام عليكم يارسول الله ورحمة الله وبركاته، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد - يارسول الله- ﷺ، فإنك بعثتنى إلى «بنى الحارث ابن كعب»، وأمرتنى إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا قبلت منهم، وعلمتهم معالم الإِسْلام، وكتاب الله وسنة نبيِّه، وإن لم يسلمُوا قاتلتُهم.

وإنى قَدمْتُ عَلَيْهم فَدَعَوْتُهُم إلى الإسلام ثلاثة أيَّام كما أمَرنى رسول الله، وبَعثْتُ فيهم ركبانًا، قالوا: يا «بنى الحارث» أسلموا تسلموا فأسلموا ولم يقاتلُوا، وأنا مقيم بَيْن أَظْهُرِهِم آمُرهم بما أمرَهم الله به، وأنْهاهُم عما نهاهُم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبى ﷺ، حتى يكتب إلى رسول الله ﷺ.

والسلام عليكم يارسُول الله، ورحمة الله وبركاته].

فَكَتَبَ إليْه رسُول الله ﷺ:

[بسم الله الرحمن الرحيم. من «**محمد**» النبى، رسول الله، إلى «خالد بن الوليد» سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد، فإن كتابك جاءنى مع رسولك يخبر أن «بنى الحارث بن كعب» قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله

وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشرهم... وأنذرهم... وأقبل.

وليقبل معك وفدهم. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته].

وهكذا ترى - يابُنى العزيز- أنَّ «خالدًا» - رضى الله عنه- قد زاد إلى مهمّاتِه في الجهاد والقتال مهمة جديدة هى (تعليم) الناس الإسلام وسنَّة النبى «عليه الصلاة والسلام»، ولَّاه إياها رسُولنا الأكرم ﷺ، فَلوْلا أَنّه- رضى الله عنه- كان كفئًا وجديرًا لما عُهدَ إليه بذلك.

لقد كان -رضى الله عنه -يتقنُ صناعَة الكلمة ورفع راية الدَّعْوة إلى الله، كما كان يتقنُ حمل السَّيْف، وركوب الخيل، ومواجَهَةَ الأعداء.

أضِفْ إلى ذلك شِدَّة تَقواه، وورعه، وإيمانه.

فما كان أحبّ إلى قلْبِهِ من شيء، أكثَر من الصّلاة.. وتلاوة القرآن..، والحجّ إلى بيت الله الحرام.

ولسوْف نَعْرِض لهذا في حينِه إن شاء الله تعالى.

ثم إنّ «خالدًا» -رضى الله عَنْه- كان مَعَ رسُول الله ﷺ يَوْم حجّه، [يوم حجَّة الوداع]، التى لم يحج «عليه الصلاة والسلام» غيرها في المدينة، ومن أَجْل أن رسُول الله ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى بعدها، سُمّيَتْ كذلك، فَقَدْ بلَّغ «عليه الصلاة والسّلام» مَنْ حَجَّ معه يومئذ بلاغات كثيرة، وبيَّن أحكامًا عديدة، وآذَنَ فيها بتمام نزول الوحى، فلم ينزل بعدها قرآن أبدًا.

ويروى أنَّ عَدَد المسلمين الذين أدُّوا مع رسول الله ﷺ يَوْمئِذ فريضة الحجِّ قد بَلَغ مائة ألْف.

في عَهْد «الصِّدِّيق» - رضى الله عَنْهُ- ارْتدادُ العَرَب

بعد أن لَحق رسول ﷺ بالرَّفيق الأعلى، وانتقَل إلى جوار ربِّه، تشاوَرَ المسلمون على مَنْ يخْلُفُه، ثم اتفَقُوا على «أبى بكْر» - رضى الله عنه - وبايَعُوهُ.

وارتدَّتْ بعض القبائل العربية عن الإسلام لأنّها لم تكُن قد آمنتْ إيمانًا صادقًا، أو دَخَلَتْ في دين الله راغبة.

كما أنَّ بَعْض الأشخاص من رؤساء القبائل، من شياطين الإنس، وجدوها فرصة مناسبة للانقضاض على الإسْلام، وإظهار ما في نفوسهم من مكنون الكُفر والشرك والتسلُّط فأعَلنُوا نبوءَتهُمْ كذبًا وافتراءً، وجاءُوا للبسطاء والضّعفاء بأمور، منها النفاق والدَّجل، فاستَلَبُوا عقُولهم واستْتَقْطبُوا مشاعرهم.

وكان ذلك أخطر ما واجَهَهُ الإسلام بعد وفاة رسُول الله ﷺ، فقد ادَّعى «مُسَيْلمةُ» كذّاب «بنى حنيفة» في أرض «اليمامة» النُّبُوَّة!!!، وكذلك «الأسْودُ العنسى» في «اليمن».

ولقد بَلَغَ من خُطورةِ الأمْر أنَّ بَعض تلك القبائل المرتدَّة، مثل قبيلة «عَبْس» لم يكتفوا بإعلان ارتدادهم عن الإسلام بل استعدوا لمهاجمة المسلمين في عقر دارهم، في المدينة المنوَّرة.

مَوْقف «الصِّدِّيق» -رضى الله عنه-

قال بَعْضُ زعماء تلك القبائل: نُصَلّى ولا نُزَكى..

أي أنهم اقتنعوا عن أداء الزكاة، وعَطَّلُوا فريضة من فرائض الإسلام، وحاولُوا أن يَهْدمُوا رُكنًا من أركانه.

وكان من رأيِ بعض الصحابة رضْوان الله عليهم أن يأخذ الخليفة «الصديق» هؤلاء المرتدين بالِّلين ويهادنهم، خصوصًا وأنّ الإسلام في فُتُوَّة ويفاعةٍ وطَراوة - عُود..

وهذا ما أشار به «الفاروق» - عمر بن الخطاب - رضى الله عنه، على «أبى بكر».

(والله لَوْ مَنَعُونى عِقالًا..)

فماذا كان جواب «الصِّدِّيق» - رضى الله عنه -؟ وماذا كان مَوْقِفُه؟

لقد اعتَزَم أن يُقابل كل من يُفرِّق بَيْن الصلاة والزَّكاة..، ثُم قال لِـ «عمر» رضى الله عنهما:

- والله لو مَنَعُونى عِقالًا كانُوا يؤدُّونَه لِرَسُول الله ﷺ لقاتلْتُهُم عليه..

وأضافَ مشَتَدًّا على «عُمَر».

- أجبارٌ في الجاهليَّة يا «عُمَر» خوار، في الإِسْلام!!؟؟

والعِقال - يابنىَّ العزيز - هو المقْوَدُ أو الرَّسَنُ الذى يُرْبَطُ إلى عُنق الدابَّة، وضَرْبُ المثل به لتفاهَتِه وقِلَّة شَأنِهِ يَعنى صلابَةَ «أبى بكْر» - رضى الله عنه- في الموقف.

ولقد بَلَغَ من صلابته - رضى الله عنه - أنَّه خَرَج بنَفْسِه على رأس جَيْش من المسلمين لِردِّ بنى «عَبْسٍ» عن أطراف «المدينة» ودَحرهم عن حماها.

القائد المناسب أو [الرّجُل المناسب في المكان المناسب]

لقد كان الأمْر داهية خطيرة..

فالحزْم والعزْم فيه هو الرَّدُّ الأول.. وقد كان!!

والضَّرْبَةُ الشديدة الموجعَةُ الحاسِمَة... هى الفيصل.

عندئذٍ أعَدَّ «أبو بكْر» -رضى الله عنه- العدَّة لقتالِ رؤوس الارتداد: «مُسَيْلمة» و «مالك بن نُويْرة» و «طُلَيحة بن خُوَيْلد» وغيرهم.

فجهز - رضى الله عنه - الجيوش لمقاتلة المرتدين في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، في «اليمامة» و«حضر موت» و«اليمن» و«عُمان» و«البحرين»...، وعقد أحد عشر لواءً لأحد عشر قائدا، منهم: «خالد بن الوليد» و«عِكْرمة بن أبى جهل» و «شُرَحْبيل بن حسنة» و«عمرو ابن العاص» ووجّههم إلى المواقع التى عينها لهم.

وقد أمر «خالدا» بالتوجُّه إلى «طُلَيْحَة بن خويْلد الأسدى» وإلى «مالك بن نُوَيرة» لأنهما كانا من أخطر الأشخاص الذين ارتدوا بعشائرهم وقبائلهم عن الإسلام، فقد كان «طليحة» يدعى النُّبُوّة، وقد صدقه في ذلك جهّال قومه وسفهاؤهم.

وكان من توجيهات «الصدِّيق» _ رضى الله عنه- ونصائحه لقادَته أن لا يُغيروا على قوم ويهاجموهم قبل أن ينذروهم بالإسلام، فإن استجابوا فبها، وإن رفضوا قاتلوهم وأَوْقعوا بهم.

وكان من الإشارات أو العلامات التى تدل على أن القوم ما يزالون على إسلامهم، أو أنهم رجعوا إليه، هو: الأذان، فإذا ما سُمِع فيهم لم يُغيروا عليهم.

أولى المعارك: كانت معركة «خالد» الأولى مع «**طليحة**»..

ونحب أن نُنوِّه بادئ ذى بدء بأن «خالدًا» -رضى الله عنه- لم يكن قائدا عسكريا عاديا بل كان عبقرية من نوادر التاريخ، يتمتّع بكفاءاتٍ عالية وصفات ومؤهلاتٍ قَلَّ تُوجد في غيره.

منها على سبيل المثال: أنه لم يكن ليَسير إلى موقع عدوِّه وقتاله إلّا وهُو على [تعبئة] كاملة وتامّة، وهذه في العُرف العسكرى لها مدْلوها ولها أهدافها ومعطياتها.

ومنها: أنه كان يعتمد عنصر [المفاجأة] مما يبلبل صفوف العدو، إذ يأتيه الخطر الداهم من حيث لا يحتسب.

ومنها: أنَّه -رضى الله عنه- كان يضع في حساباته القتالية أن أحسن وسائل الدفاع هو [الهجوم]..!! فمبادأة العدو بالمعركة تترك في نفوس الجند أثرًا انهزاميًّا.. ورعْبًا وخوفا.. مهما كانت كثافته وعدده.

ومنها: أنه كان على مستوى عالٍ من قُوّة التحمّل حتى إن جنده الذين كانوا يرافقونه في القتال ليشعرون بشدة الرهق والتعب.

أضف إلى ذلك كله، بل على رأسه في الحقيقة، أن الإسلام والإيمان قد أمدّاه بعون من الله تعالى وتوفيق، وسداد ونَصْر.

وبادر «خالد» قوات «طليحة بن خويلد الأسدى»، فاصطدم معها اصطداما هائلًا، في منطقة تدعى «البطاح»، فقُتل في المعركة أخو «طليحة» واسمه: «حِبال»...، وتضعضعت صفوف المرتدين، حتى إن أحد قادة «بنى فزارة» واسمه: «عُيَيْنَة بن حصْن» كان يأْتى بَيْن الحين والحين إلى حيث يقبع «طليحة» ملْتحفًا بعباءتِه مدّعيًا بأن الوحْى يأتيه!!! فيسأله: ماذا قال لك «جبريل»! فيجيب: لا شيء، حتى كانت المرّة الثالثة..، والأخيرة..، عندئذٍ طلب «عيينة» من «بنى فزارة» أن يَرْفضوا.. وينحازوا عن القتال، ووقعت الهزيمة، وفر «طليحة» بزوجته على رَكُوب له إلى ناحية الديار الشامِيَّة، مخلفا

وراءَه أشلاء الضحايا، وكميات وافرة من الغنائم من السلاح والمتاع والما ل والخيل والماشية.

• المعركة الثانية:

وكانت معركة «خالد» الثانية مع «مالك بن نُوَيْرة» وقومه، ولكنها لم تدُم وقتا، فقد وقع «مالك» وطائفة من رؤساء العشيرة أسرى في يد «خالد»، فَأمر بِحَبْسهم في خيمة ووضع عليهم حراسة مشدّدة، وفر كثير من الناس منهزمين لايلوون على شيء، يضربُون في متاهات الصحراء الشاسعة هنا وهناك على غير هدَى، عدا من امتلأت بهم ساحة القتال وميدانه بين قتيل وجريح.

وكان لِـ«مالك» امرأة تُدعى «النَّوار» حازها «خالد» إلى نصيبه من السَّبْى.

ويُقال بأن خطأ ارتكب في الهجوم على قَوْم «مالك بن نُويرة» إذْ سُمِع فيهم الأذان، وبالرغم من ذلك هاجمهم «خالد»!!

وهذا أَمْر نقله أَحد الصحابة الذين كانوا في جيش «خالد»-، وهُو: «أبو قتادة» -رضى الله عنه-، كما نَقَل إلى الخليفة «الصِّدِّيق» نَبَأ زواج «خالد» من «النوار» زوجة «مالك».

وليْس هذا فقط.

بل حَدَث في الليلة التى أعقبت المعركة حادثة هامة..، إذْ كان الجوُّ باردًا شديد البرودة، وبرد الصحراء في موسم الشتاء قارس قاسٍ، فقال «خالد»- رضى الله عنه:

• أدفِئُوا الأسارى:

من قبيل الرَّأفة بهم والحنوِّ عليهم،

وكلمة [الإِدفاء] كانت تعنى في لغة القوْم الذَّبْح، فقامُوا إليهم وذبحوهم عن بَكْرة أبيهم!!!

ولم يستطع «خالد» أَنْ يفعل شيئا بعد أن وقع الأمر سوى الحسرة والندامة والأسى..!

• إنّ في سيف «خالد» رهقًا:

بينا كان «أبو قتادة» يروى للخليفة «الصديق» هذه الأخبار كان سيدنا «عمر بن الخطاب» -رضى الله عنه- جالسًا يستمع، وقد أفْزعه وهاله ما جرى، فقال لِـ «أبى بكْر»:

- يا خليفة رسول الله، إن في سيْف «خالد» رهقًا وشدّة.. والأوْلى أن تعزله وتُولّى غيره..

لكن «أبا بكر» رضى الله عنه - أعرض عن مقالة «عمر» وصَرَف سمعه عنها، لا استخفافا ولكن من قبيل التروّى في الأمور، واستجلاء الحقيقة وأرسل يستدعى «خالدًا» إليه ليواجهه.

فلما حَضَر، كان «عمر» عند «أبى بكر» فقام إلى «خالدٍ» ووجّه إليه كلامًا قارسًا وشديدا وعنَّفه عما كان منه، فلم يجبه «خالد»، ومضى إلى الخليفة «الصّدّيق» واعتذر إليه، وبيّن له الحقيقة كاملة ، فقبل «أبو بكر» عذره، وغفر له ما كان منه من غير قصد، وثبّته في قيادته، فخرج «خالد» عائدا إلى الميدان من جديد، إلى الساحة التى ألِفها وأحبَّها.

لَنْ أَشيم سَيْفًا سلَّهُ الله على المشركين!

وكان مما قاله «أبو بكر» -رضى الله عنه- لـ «عمر» وقد اشْتَدَّ الفاروق وألحّ في عزل «خالد»:

- لن أَشيم[1] سيفًا سلَّه الله على المشركين.

ولقد دفع «أبو بكر» -رضى الله عنه- دِيَة «مالك بن نُوَيْرَةَ» والقتلى الأسْرى الذين ذبحوا، إرضاءً لذويهم وكفّارة عن «خالد».

أَخْطَرُ حروب الرِّدَّة: حرب اليمامة

كان «بنو حنيفة» في «اليمامة» من أرض الحجاز أصْحاب بأس وقوّة، وكانوا قد تابعوا «مُسَيْلمة» كذّابهم في دعواة النبوه؛ وكانوا ذوى عددٍ وكثرة.

ولقد أرسل إليهم «أبو بكر» -رضى الله عنه- فيمن أرسل من الجيوش جَيْشًا بقيادة «عِكْرمة بن أبى جَهْل»، ليُحاربَهُمُ ويعيدهم إلى صوابهم، ويَقتص منهم على ما فعلوا بالمسلمين منهم، من ذَبْح وقتل...

وكان «مُسيلمة» في ذلك الحين قد تلقّى امرأة عربيةً قدمت من الشام مع قومها، تدّعى هى أيضًا النبوة، مغتنمة فرصة الرِّدة للإيقاع بالمسلمين، واكتساب مايمكنها اكتسابه من مغنم سلطه ونفوذ...

وكانت هذه المرأة تُدعى «سَجاحًا»..!

تلقّاها «مسيلمة» فانضمّتْ إليه بجيوشها، ثم تحايل عليها فتزوجها، ورضيت مِنْه بما أعطاها من مالٍ وما وعدها به من تقاسم البلاد!! ثم عادَتْ من حيث أَتَت.

(1) أشيم: أعيد إلى الْغِمْد.

أما هو وأتباعه فقد واجهوا جيش «عكرمة» الذي لم ينْتظر سنوح الفرصة فهاجم «مُسيلمة» محاولا اقتناص النَّصْر على العدوّ، فوقع في كمين دبَّره «شرحبيل بن مسيلمة»، فأصيب المسلمون بمذاك، إصابات كثيرة، ومات منهم عدد كبير.

وبلغت الأنباء «المدينة»، فتأثَّر لذلك «الصديق» - رضى الله عنه-، وتألَّم ولكنه لم يَقنط، فأرْسل إلى الصحابى شُرحبيل بن حَسنة -رضى الله عنه-، وهو أحد قادَة جيوش الرّدَّة، يأمُرُه بإنجاد «عكرمة» ومن معه، ويحذّره من الوقوع فيما وقع فيه «عكرمة» من التسرع..

ومضى «شُرَحبيل» - رضى الله عنه- إلى هدفه، حتى إذا ما كان في ديار القوم، سعى حثيثًا إلى المواجهة، وكأنه نسى أوامر «الصدِّيق» وتوجيهاته، لذا... أُصيب جنده بهزيمة منكرة على أيدى قوم «مسيلمة»..

في ذلك الحين -عزيزى القارئ- كان «خالد» -رضى الله عنه- عند «الصِّدِّيق» في «المدينة» يستمع إليه فيما نُسب له في أمر «مالك بن نويْرة» - كما قدَّمنا..

فلما قبل عُذره، وثبته على القيادة، وجهه إلى قتال مُسْيلمة ونجدة المسلمين الذين كانوا في جَيشىْ «عكرمة بن أبى جَهْل» و«شُرحبيل بن حَسنة» كان المقاتلون من «بنى حنيفة» يزيدون على الأربعين ألفًا..، والمسلمون في مجموعهم لايتجاوزون السبعة آلاف!!!

فلما وصل «خالد» إلى «اليمامة» وانضمت إليه قوات «عكرمة» و«شرحبيل» توجّه إلى حيث تتجمع قوات «مسيلمة»، ولقد اتَّبع «مسيلمة» خطة الكمين التى تعامل بها سابقًا مع المسلمين...، فما أن اصطدم الجيشان حتى ظهر الكمين واندفعت قوات العدو إلى قلب صفوف المسلمين ففرَّقَتهم وأجْلَتْهم

عن مواقعهم، وأكثرت فيهم القتل... ووصلتْ بعض طلائعهم إلى خيمة «خالد» نفسه..، وكادت الهزيمة تلحق بالمسلمين.

وهنا – عزيزى القارئ– تبدّى أمران اثنان؛ الأوّل: عامل الإيمان، والثانى: حِنْكة «خالد»..، فلقد نادى في الناس أن يتمايزوا ليعرف من أين يأتى الخلل والضعف، والمقصود بالتمايز: هو ظهور كل قبيلة وطائفه في الميدان بأعلامها ورايتها في مواقعها..،

والأمر الثاني: عندما انطلقت من أَفْواه المهاجرين والأنصار نداءات الحماس، وصرخات الفداء، وكان أعلاها وأسماها شعارهم يومئذٍ : [يا مُحَمَّداه!!!].

فاندفعوا جميعًا في هجوم معاكس... كالسَّيْل الجارف... وهنا تراجعتْ قوات «مسيلمة»، وتضعضعت..، وارتدت على أعقابها، ولحق بهم المسلمون يضربون في أَقْفيتهم، يقطعون الرقاب، ويجندلون الفرسان، ويتركون الجثث والأشلاء تملأ الأرض...

«حديقةُ الموْت»

وأعطى «مسيلمة» أوامره لجنده أن يلجأوا إلى حديقة كبيرة مُسوَّرة، يدخلونها ليحتموا بها بعد أن حاقت بهم الهزيمة؛ وكانت تشبه الحصن، بأسوارها العالية وجدرانها الحصينة..

ولقد دفع المسلمون ثمنًا باهظًا من أرواحهم في سبيل ردّ الغارة عنهم، وتبديل موازين ومقاييس المعركة، إذ سقط من بينهم أبطال أشدّاء، وأسماء بارزة لامعة، وشهداء كُرماء، أمْثال: «البراء بن معرور»..

إذ كان لثبات هؤلاء - رضى الله عنهم - واندفاعهم، واسترخاصهم الشهادة في سبيل الله أبلغ الأثر وأعظم النتائج.

ولكن.. هل يقف تدفّق سيل الحماس الإيمانى عاجزًا أمام جدران الحديقة التى لجأ إليها «مُسيلمة» وجنده؟؟ أم أن هذه الجدران تنهار وتسقُطُ وكأنّها صُنعت من ورق..!؟

وراح المسلمون وهم في قمة الحماس يدقّون أبواب الحديقة برماحهم وسيوفهم، وسنابك خيْلهم يريدون اقتحامها..، ولكن على غير طائل، ومن دون جدوى...؛ فما العمل؟

وانبرى من بين جموع المسلمين أحد الأبطال، وكُلُّهم أبطال شجعان لايبالون بالموت، لأنه في سبيل الله أكرم خاتمة وأسمى نهاية وكان اسمه «البراءُ بن مالك» -رضى الله عنه-، وهو من الصحابة الأجلاء وفرسانهم الأشدّاء..

وطلب من إخوانِهِ أَنْ يحملوه إلى السُّور..، ولسوف يقاتل الأعداء مستعينًا بالله تعالى، فإن قدّر الله له الحياة... يفتح لهم أحد الأبواب... ومنه يدخلون...

ترددوا أوّلا في إجابة طلبه..، لكنه ألحّ وأصرّ..، فرفعوه على بعض ألواح من الخشب حتى بلغ أعلى سور الحديقة، وهناك قاتل قتالًا شديدًا لايُبالى بجراحات السيوف التى تناولته من كل ناحية...، حتى استطاع أن يبلغ الباب ويفتحه...

ثُمّ سَقَطَ أرْضًا!!!

واندفعت كتائب الإيمان إلى داخل الحديقة وكأنها الإعصار الشديد يفتك... ويُدَمِّر.. ولايأتى على شيء إلا تركه قاعًا صَفْصفا..، وانْتهى أَمْرُ

«مسيلمة» ومن معه، إذ كان من أوائل الذين قُضى عليهم..، كما تناثرت في أنحاء الحديقة وأرجائها جثث القتلى.. وجرت فوق أرضها الدماء الغزيرة، وتكومت الأشلاء أكداسًا، ولقد سُمِّيت: «حديقة الموت»!!

ولقد كان هذا النَّصر بفضل الله تعالى من أعظم ما امتنَّ به على عباده المؤمنين في أخطر ما واجههم من زلزلة وَرِدَّة.

لقد صَدَقُوا ماعاهدوا الله عليه فوفاهم حقهم، وصدقهم وعده، وأيدهم بنصره.

انهيارُ المُرْتدِّين

وتطايرات أنباء هزيمة «مُسيلمة» وبنى حنيفة في كُلّ الأنحاء والاتجاهات، وإلى مختلف أصقاع وبقاع شبه الجزيرة، فبدأت تتراخى عزائم الذين ناصبوا الإسلام العداء، وارتدوا عنه إلى تحالف مع الشيطان، من «البحرين» إلى «عُمَان» إلى «حضرموْت» إلى «نَجْد».. وإلى كُل مكان؛ وعادَتْ راية الإسلام تُظَلِّل كل تلك الديار.

ولاننسى - عزيزى القارئ- ونَحن نختم الكلام على حروب الرِّدَّة عزيمة الخليفة «الصِّدِّيق» - رضى الله عنه- وموقفه، وكذلك أبطال المسلمين الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وأيضا الشهداء الذين اختارهم الله سبحانه إلى جواره في أكرم نُزُل.

وأخيرا... لاننسى دوْر سيْف الله المسْلول «خالد بن الوليد» - رضى الله عنه-، اذ كان بفضل إيمانه وصدق يقينه وجرأته وعسكريَّته الفذّة أحد العوامل الرئيسية في كسْب المعركة، معركة الحق مع الباطل، إن الباطل كان زهوقا.

«أَرْض العراق»

كانت تخوم «العراق» الملاصقة لحدود شِبْه الجزيرة العربية، وأرضُهُ، وكذلك ناحية الديار الشامية، موطنًا لعديد من القبائل العربية التى تخضع بأكثريتها الساحقة لسلطان الفُرْس، وتتعامل معهم، ويَدين بعضها بدينهم، اللهُمَّ إلا قِلَّة منها كانت تدين بالنصرانية، خصوصًا تلْك التى كانت في الناحية الغربية القريبة من سلطان الروم في الشام.

وكانت قوات المسلمين الذين أرسلهم الخليفة «الصّدّيق» - رضى الله عنه- لمحاربة المرتدّين قريبا من تلْك الجهات، قد أدّت غرضها وبلغت هدفها، وأعادت الحق إلى نصابه.

ثمّ استأذن أحد القادة الأبطال وهو «المثنّى بن حارثة الشيبانى» الخليفة في المدينة أن يناوش «المناذرة» وغيرهم من عملاء «فارس» وعمالهم، فأذِن له «الصديق» -رضى الله عنه - وأمدَّه ببعض الجند، وضمَّ إليه «عُدَىَّ بن حاتم الطائى» و«عياض بن غنم» مع من معهما من المسلمين.

الأمْرُ إلى «خالدٍ» بالتوجّه إلى «العراق»

ودخلت قوات المسلمين بقيادة «المثنّى» -رضى الله عنه- في حروب ومعارك كثيرة مع القبائل التى يصطنعها «الفُرْس» ويؤيدونها ويمدونها.. إلّا أن الكثرة العدديّة التى كانت للأعداء، واتساع رقعة البلاد، وانتهاض «الفُرْس» لِرَدّ الغارة عن البلاد، جعل موقف «المثنى» ومن معه في موقع خطير ومركز حرج..، فاستنجد بالخليفة «الصِّدِّيق»، ووضّح له الموقف وبيّن له مدى الخطورة التى تحيق بالمسلمين هناك..!!

وكانت معركة «خالدٍ» رضى الله عنه- مع «بنى حنيفة» و«مُسيْلمة» قد انتهت، ووصلت أنباؤها بالنصر المؤزّر إلى «المدينة المنوَّرة»، فَأرسل «الصّدِّيق» - رضى الله عنه- أمره إلى «خالدٍ» أن يسير بقواته إلى العراق ويتولى هناك مهامَّه في مواجهة أعداء الله، ونصْرة إخْوانه...!

البطل في الميْدان...

ولعل مداومة القتال، واستمرار الجهاد والنِّضال، ومؤالفة ظهور الجياد، والعشْق الدائم بين يَد «خالد» والسَّيف...، كان جميعُها أسلوب حياتِهِ ونمط عَيْشه..، فيها لذّته... وغذاؤه... ونشْوته...

فما أَسْرَع ما لبّى الأمر واستجاب له، وانْطلق في غير توانٍ وكسل إلى أرْض «العراق».

وقبل أن نتحدث عن معارك «خالد» وفعاله في أرض «العراق» لابُدّ أن نلحظ أمرين أساسيين لهما طابعهما على المعارك التى خاضها «خالد» - رضى الله عنه- ومن معه من القادة والجند.

الأمر الأوّل هو مواجهة «الفرس» للمرة الثانية في تاريخ العرب، بعد يوم «ذى قار» الذى مضى عليه عشرات السنين، وتغلّب فيه العرب على الفرس، وتغنى بانتصارهم فيه شعراؤهم، وتحدثوا عن المجد الأمثل في اليوم العظيم، إذْ ليس قتال الفرس قتالًا عاديًّا!! بل إن فيه ضراوة.. وقسوة... ووحشية.. هذا ما يحدِّثنا عنه التاريخ، ويحدّثنا عنه أيضًا «خالد» نفسه فيقول: (مالقيتُ قوْمًا كأهل «فارس»...)

والأمر الثاني يتعلق بالنتائج التى تمخضت عنها معارك «خالد» هناك، فكلها- بلا استثناء- كتب له فيها النّصر، والظفر..، أضف إلى ذلك أنها

كانت إرهاصًا ومقدّمة ليوم عظيم هو يوم «القادسية»، يوْم أَذَّن القدر في أسماع البشرية أن دولة الأكاسرة قد ولَّت، وباءت وانتهت؛ وأن نبوءَة رسول الله ﷺ يوم «الخندق»...، ونبوءته أيضا يوم مزّق «كسرى» كتابه ﷺ وطرد رسُولَه «عبد الله بن حذافة السهمِيّ» -رضى الله عنه- قد تحققت وتجلَّت..

معارك «خالد»

يحدّثنا التاريخ فيقول: إن معارك «خالد» في العراق زادت على العشر، وأنها استغرقت زمنا ليس بالقليل..، وأنها كانت بعد حروب الردَّة مظهرا عظيما من مظاهر قوة الإِسلام والمسلمين، واندفاعهم نحو غايتهم في رفع لواء الحق، ونشر راية التوحيد في كلّ مكان...

وصحيح أن «خالدًا» -رضى الله عنه- قد جاءه، الأمر وهو في «العراق» بنجدة إخوانه في «الشام»، فتركه على جناح السرعة، ولم يكمل ما قصده في «العراق» ولم يتم عمله، غير أنه قد مهّد البلاد ووطّأها لمن بعده من خلال المعارك التى خاضها وزلزل فيها هيبة «الفُرْس»، وكان هذا هو المهم!!

ولقد تميزت تلك المعارك بأنها كانت في مختلف أنحاء «العراق» فلم تقتصر على إقليم معين أو جهة معينة، فبينما هو عند ساحل الخليج في الشرق تراه بعد فترة على حدود الشام من ناحية الغرب، وهكذا.

ذاتُ السَّلاسل

كانت معركة «ذات السلاسل» أوّل معاركه - رضى الله عنه...، وما سُمِّيت كذلك نسبة إلى المكان الذي وقعت فيه، بل لأن الأعداء على جارى عادة «الفرس» و «الرومان» في القتال كانوا أثناء الحروب يربطون بعض جنودهم بالسلاسل الحديدية كى لا يفروا من الميدان..!!

فلما جاز «خالد» بقواته من «اليمامة» صحراء «نجد»، استقبلتْه جموع الأعداء عند أطراف «العراق» ممّا يلى شبه الجزيرة العربية، وكان دائما على تعْبئةٍ واستعداد تام للقتال!! لا يلزمه وقت مهما قلَّ - للتهيُّؤ..

ولكن العدو كان ينزل على ماءٍ، يستفيد مِنْه....، للتَّروية وغيرها، فقال بعض أعوان «خالد» له: إن العدو في سعةٍ من الماء، ولسوف نشرع بالحاجة الماسة إليه عند احتدام القتال، فما العمل؟ فأجاب «خالد» -رضى الله عنه- بلسان المؤمن الواثق بالله أن رحمة الله بعباده المؤمنين لا تتخلى عنهم في وقت من الأوقات، فوطّنوا أنفسكم على الجهاد والثبات!

وصَدَق ظنُّ «خالد» بالله تعالى...، وإذا السّماء تمطر مطرا غزيرا..، وإذا الأرض تبْتلّ.. وإذا القيعان تجمع الماء..، وإذا الجند في يُسر وبحبوحة ورِضى..

ثم اصطدم الجيشان والْتقى الفريقان...

وحمل «خالد» -رضى الله عنه- حملةً قويّة على العدو بمقدِّمة جنده، واخترق الصفوف حتى بلغ آخرها...، ثم انتشر جناحا جيْشه في قلب جيش الخصم، يمنةً ويسرةً..، وما هى إلّا جوْلات قليلة حتى كانت الهزيمة المنكرة، وفرّ الأعداد.. وخلفوا وراءهم عددًا لا يحصى من القتلى والجرحى، وكذلك المغانم والأسلاب..

وكانت «ذات السلاسل» فاتحة نصر متلاحق على المسلمين، وعلى «خالدٍ» - رضى الله عنه - وهزائم متكررّة على العدو، من «مناذرةٍ» و «فُرْس» وغيرهم.

ولقد تركت هذه المعركة صدًى هائلًا فى أنحاء العراق وفارس وبدأ العدو يحسب ألف حساب لمنازلة المسلمين ومقارعتهم في الميادين، وأيضًا.. تتدفق من الجهات البعيدة قوات كثيرة بصَدِّ الغُزاة ومواجهتهم.

وَقْعَةُ «الثَّنى» أو «المذار»

أرسل قائد الْفُرس «هرمز» يخبر «كسرى» الملك بما حدث له ولقواته على يد «خالدٍ» من هزيمة، ويطلب منه المدد، فأرسل له قواتٍ إضافية بقيادة أَحَد أركانه العسكريين الذين يعتمد عليهم ويثق بهم، ويُدعى «قارن بن قريانس».

فلما وصل «قارن» إلى مكان يسمى «المذار» عند نَهْرٍ، لقيه أصحابه المنهزمون، وكان فيهم ولديْ «كسرى»: «أنوشجان» و«قُباذ» وعلى رأسهم «هرمز»، فقويت شوكتهم، واستعادوا بعض عزيمتهم وحماسهم، وعسكروا هناك.

وحين علم «خالد» بمقامهم تقدَّم إليهم بقواته من جديد، ليناجزهم.

وبدأ البراز أوّل الأمْر، فنزل إلى الميدان «قارن» قائد الفرس، وراح يصول ويجول ويطلب الطعان، فبرز إليه «مَعْقَل بن الأعشى»، وحاوره وداوَرَه ثم قتله.

ثم تَبِعَهُ «أنوشجان بن كسرى» فتصدى له «عاصم التميمى»، ومازال يُطاعنه حتى قضى عليه.

ثم جاء الدور على «قُباذ»، وما أن حَلَّ فوق جواده في ساحة القتال حتى خَرَج إليه «عُدىّ بن حاتم الطائى»، ولم يغادره إلّا جثة هامدة ممدَّدة فوق التراب.

الالتحام

والتحم الجيشان...

وكانت عزيمة «الفُرْس» قد تلاشت، ومقاومتهم قد ضَعُفَتْ، بسبب ما حَلَّ بهم من مقْتل أشرافهم وكبرائهم...

وحَمَلَ «خالد» عليهم حملة شديدة، جعلتهم منذ اللحظة الأولى ينهزمون ويفرون، ويسقط العدد الكبير منهم في مياه النَّهْر ويموت غريقًا..!!

ولقد كان عدد قتلاهم كبيرًا وكثيرًا، قُدّر بأكثر من ثلاثين ألفًا في ذلك اليوم.

كما كانت المغانم عظيمة والسَّبْى هائلًا، فقسمت المغانم، وأرسلت الأخماس إلى بيت المال في المدينة المنورة.

وَقْعَةُ «الْوَلَجة»

وصل الخبر الحزين إلى «كسرى أَرْدشير» فاهتم له وتألَّم، ثم إنّه أعدّ جيْشًا جديدًا، وجعل على قيادته فارسًا من فرسانه المشهورين يدُعى: «الأَنْدَرْزَغر»؛ وسيّره إلى قتال «خالد» والمسلمين.

ثم أَتْبعَ جيشه هذا برديف له ومَدَد، وجعل على قيادة المدد «بَهْمَنْ جاذَوَيْه».

وانضم إلى الجيشين الفارسيين عدد كبير من نصارى العرب في تلك الديار، ما بين «الحيرة» و «كسكر».

وعسكروا جميعًا في منطقة تسمى «الْوَلجة».

فبادرهم «خالد» -رضى الله عنه-، واتَّبَع معهم خطة الكمين، إذ فرّق فرقتيْن من قُوّاته إحداهما بقيادة «بُسْر بن أبى رُهم» والأخرى بقيادة «سعيد ابن مرّة العجلىّ»، وجعلهما خَلف التِّلال، وطلب إليهما أَنْ يبرزا في وقتٍ حدّده لهما.

ومن غير براز ولا مُصاولة، دَخَلَ «خالد» - رضى الله عنه- مع «الفرس» في جوّ المعركة!!!

وكانت شديدة هائلة، رهيبة مخيفة، سالت فيها كثير من الدماء، وسقط فيها العديد من الضحايا.

ولقد قيل عن شدّة هذه المعركة:

- [حتى ظن الفريقان أن الصَّبْر قد فَرَغ!!!]

وانتظر «خالد» -رضى الله عنه - ظهور قُوّات الكمينين الذي تأخّر عن موعده المحدّد بعض الوقت... ، وظنَّ أن في الأمْر سوءًا، ولكنه تحمَّل مع من معه وأدار المعركة بجلَد وثبات.

وفجأة أطلَّ الكمينان من مواقعهما...، وخرجا من ناحيتيْن، وأطبقت على قوات العدوّ، فانهزمت صفوف الأعاجم، وولّوا مُدبرين... هاربين...

ومضى قائدهم «الأندر زغر» محاولًا النجاة بنفسه، ولكنّه مات من شدة العطش الذى أصابه.

ووقع في يد «خالد» ابنان لزعيمين من زعماء نصارى العرب، هُما ابْنا «جابر بن بُجَيْر» و «عبد الأسود» من «بنى بكْر بن وائل»، ثم أعطى الأمان للفلاحين من عرب النصارى، فعادوا إلى الذمّة.

معركة «أُلَّيْس»

كانت مصيبة عرب النصارى في تلْك الأنحاء كبيرة، والخسارة فادحة بسبب ما لاقوهُ في المعارك السابقة، ووقوع بعض أبنائهم في السَّبْى، خصوصًا قبيلة «بكْر بن وائل».

فَغَضبُوا وثاروا..، وزادهم حماسًا انتصار أبناء عمومتهم لهم، وتأييدهم إياهم، وحثّهم على الثبات والقتال.

فكاتبوا جميعًا «كسرى» وطلبُوا إليه أَنْ يعاونهم على الثَّأر من «خالد» والمسلمين..

فَأَمَر «كسرى» قائده «بهمن جاذويه» بالتوجّه إلى حيث يتجمع نصارى العرب من «بنى بكر بن وائل» وحلفائهم، ويقودهم جميعا في معركة يرجو أن تكون حاسمة في القضاء على المسلمين، وصدّ زحفهم عن الديار.

فلمّا أتاهم في «أُلَّيس»، ترك معهم قائده «جابان» وأمرهم بعدم القتال حتى يعود إليهم، لأنه يريد الاجتماع بـ «كسرى» ومشاورته في الأمر الطارئ، ويستنصحه فيما هو مقدم عليه.

أما «خالد» -رضى الله عنه- فعندما سمع بتجمع النصارى في «أُلَّيْس» أسرع إليهم، وليس له من هِمَّة إلّا فَلّ جمعهم، وتقطيع شملهم، والقضاء على مقاومتهم له.. نهائيًا.

ولم يأْتِهِ علْم مراسلتهم «كسرى» واجتماع الفرس معهم على قتاله.

بَيْن الأَكْل والْقَتْل...!!

وكان الفرس ونصارى العرب، حين طلع عليهم «خالد» بقواته قد بَسَطُوا زادهم للطعام، فسألوا قائدهم «جابان»: هل نعاجل المسلمين بالحرب، أم نَأْكُل فلا نظهر لهم أننا نحفل بهم أو نهتم لأمرهم؟ فقال لهم: إن تركوكم وشأنكم فتهادنوا بهم ولا تهتمُّوا لهم، ثم أقبلوا على الطعام...!

وعلى الفوْر برز البطل «خالد» إلى الميدان، والفرس والنصارى في أمر عاجلٍ من الأكْل..، وطلب المبارزة، وسمّى أسماءً معيّنة من نصارى العرب يريد أن ينازلهم ويؤدِّبهم، هم، «عبد الأسْود» قائدهم، و«ابن الأبْجر» و«مالك بن قيس»..

فبرز إليه «مالك» دون حليفيْه، فقال له «خالد»:.. يا بن الخبيثة.. ما جَرّأك علىَّ من بَيْنهم... وليس فيك وفاء!!؟؟

ثم ضربه ضَرْبَة واحدة كانت هى القاضية.

وهنا انتهض الطرفان للقتال، وفي النصارى والفرس ميلٌ إلى الطعام، وحب إلى الأكل..!

فقال لهم «جابان» قائدهم:

- سموا هذا الطعام حيث لم تقدروا على أكله، فإن ظَفرتُم كانت البُشْرى لكم، وإن هُزمْتُم أكله عدوّكم فمات بسببه.

لكنهم لم يستجيبوا له، ضنًّا بالطعام، ورغْبةً بالحياة الدنيا وزينتها.

نَهْر «الدَّم»!!

وتواثب الفريقان، وبدأت المعركة، وكانت من أشَد معارك «خالد» في العراق هولًا، وأكثرها مجالدةً، فقال - رضى الله عنه:

- ما لقيتُ قوْمًا كأهل «فارس»، وما لقيت من أهل فارس كأهْل «أُلَّيْس».

ثم أقْسَم بالله، فقال:

-اللهُمَّ إن هزمْتَهُم فعلىَّ أن لا أستبْقى منهم من أقدر عليه حتى أُجرى من دمائهم نَهْرَهم.

ودارت الدائرة على الفرس ونصارى العرب، ووقعت بهم هزيمة كُبْرى، لم يعهدوها من قبل، ولم يعرفوها في حياتهم.

وأمر «خالد» -رضى الله عنه- إخوانه أن يمتنعوا عن قَتْل الأسرى إلّا من أصَرَّ على الحرْب.

وكان عددُ المقاتلين الذين أسروا يزيد على السبعين ألفًا، فوكل بهم «خالد» من يضرب أعناقهم..، واستمرَّ القتل فيهم طيلة يوم وليلة، ولم يَجْر النَّهْرُ بدمائهم!!

فقال له «القعْقاع بن عمرو التميمى» وغيره من أبطال المسلمين:

- لو قتلت أهل الأرض لم تَجْدِ دماؤهم.. فأرْسل عليهم الماء تَبَرَّ بيمينك...

ففعل، وسمّى النهر: نهر الدَّم.

وَقْعَةُ «فرات بادقْلى» و فتح «الحِيرَة»

و «بادقْلى» فرع من فروع «الفرات، عند موقع دُعي باسمه، وأراد «خالد» بعد «أُلَّيس» التوجّه إلى «الحيرة» لفتحها، فسيَّر في ماء الفرات عند «بادقْلى» رجاله وأحماله في السُّفُن.

لكن «مرزبان» «الحيرة»، ويُدْعى: «الأزاذبه»، خَرَج للقاء «خالد»، وأمر أحد أبنائه بقطع الماء عن مجرى «الفرات»، فتوقّفت السفن عن الحركة...

فأدرك «خالد» خطة «المرزبان»، فسار إليه بالخيْل التى معه، واشتبك في قتال سريع حاسم، فقتل «المرزبان» - الأزاذبه- وكثير من أصحابه؛ وتفرق الباقون.

وتوجه «خالد» بقواته إلى «الحيرة» لفتحها...

وكانت عبارة عن حصونٍ كثيرة متعدّدة، فوجه إخوانه من القادة لحصار تلك الحصون، وهم: «ضرار بن الأزور» و «ضرار بن الخطاب» و «ضرار بن مقرِّن» و «المثنّى بن حارثة».

فأقاموا عليها، وشَدَّدوا.. حتى أَنْزَلُوا من فيها على رغبة القائد العام «خالد» وأتوا برؤوسهم ورؤسائهم إليه، فحاوروهم، حتى أَذْعَنُوا لما فرض عليهم من الجزية.

ولقد ترك فتح قصور «الحيرة» وحصونها أثره على كُلّ النّاحى في أرض السّواد، فبادر أكثر الدّهاقين والرؤساء لإعلان خضوعهم، والتزامهم بدفع الجزية للمسلمين.

فتح «الأنْبار» ووقعَةُ «ذَات العُيُون»

وتابع «خالد» سيره من «الحيرة» إلى «الأنبار» حيث الحصون ومخازن الغلال.

وكان فيها حاكم فارسى يُدْعى «شيرزاد».

فلما بلغها «خالد»، طاف بها وقد تحصَّن أهلها داخلها، وخندقوا حول السور خندقًا عظيمًا.

ونحن نعرف أن «خالدًا» لا يصبر على القتال، وتضايقه جدًا عمليّة التحصُّن، فراح يناوش العدوّ ويحضه على الخروج للقتال.

ثم أعطى أمرًا لرماة المسلمين أن يتحروا عُيون الحرس الذين يطلّون من أعلى الأسوار، ويتصيدونهم في أبصارهم وعُيونهم، وأن يرموا عن يد واحدة.

وهكذا كان...

وفي رشْق واحدٍ أصابوا أكثر من ألف من الحرس في عيونهم، فأضروهم وآذوهم.

وعندئذ طلب «شيرزاد» الصُّلْح، فرفضه «خالد» إلا على شروطٍ يُمليها هُو، وتتفق مع مبادئ الإسلام.

خُطّة بارعة

كان لابُدّ لـ «خالد» أن يجتاز «الخندق» بفرسانه وقواته ليهدد الأسوار ومن بداخلها.

فأمر بذبح الإبل الضعيفة والمسنة التى كانت عنده في جيشه، وإلقاء جثثها في الخندق، وبهذا طمر جهة من هذا الحاجز، ومرَّ بخيْله وجنده من فوقه، حتى دنا من الأسوار، وأصبح يهددها بالفعل، تهديدًا شديدًا ومباشرًا!!

فأذعن «شيرزاد» بطلب الصُّلْح الذى أراده، ولكن بشروط «خالد» – رضى الله عنه.

وخَرج «شيرزاد» ذليلًا كليلًا من «الأنبار» التى انضمت إلى فتوحات «خالد» في العراق.

فَتْحُ «عَيْن التَّمْر»

إن المتتبع لخطط سير «خالد» في العراق، يُدْرك أنه – رضى الله عنه– بالإضافة إلى قيادته العسكرية، له خبرة أيضًا بالمواقع الجغرافية للمنطقة، وتوزعات عرب النصارى هناك، وقبائلهم الكثيرة.

ونُدْرك أيضًا أنه – رضى الله عنه– كان يقاتل بقواته على جبهتيْن من أخطر وأعنف الجبهات، جبهة الفرس الأشداء، وجبهة نصارى العرب.

كما ندرك كذلك أنه قد توسَّع في رقعة الفتح حتى قارب الحدود الشامية من ناحية العراق، فكأنه –رضى الله عنه– يريد أن يؤمِّن النواحى كلها، ولا يفاجأ بعدو ينقض عليه من وراء ظهره أو بجانبه فيضرّه ويؤذيه.

توجه «خالد» من «الأنبار» إلى «عين التمر»، وقد ترك في «الأنبار» حامية إسلامية بقيادة «الزبرقان بن بدر»..

وكانت «عين التمر» قاعدة من قواعد الفرس في أرض العرب وديارهم، يحكمها حاكم منهم اسمه «مهران بن بهرام».

وقد اجتمع مع «مهران» جموع عظيمة من عرب النصارى، من «تغلب» و «إياد» و «التمر».

وأتاهم «خالد»...

فقال أحد زعماء نصارى العرب واسمه «عقة بن أبى عقة» لِـ «مهران»:

– إن العرب أعلم بقتال العرب.. فدعنا و «خالد». فوافقه «مهران»، فلما لَامَهُ أصحابه قال لهم:

–أنى لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم... وحذرهم من «خالد» قائلًا:

– لقد جاءَكم من قَتَل ملوكَكم، وفَلَّ حَدَّكُم، فاتقيته بهم فوافقوه، وسمعوا له وأطاعوا..

ولما تواجه المسلمون وعرب النصارى عند «عَيْن التَّمْر»، قام «عقّة» إلى جنده يعدّهم للقتال والصدام، ويحثهم...، وبيْنا هو كذلك، أغار عليه «خالد» فاختطفه من بين أيدى الجند الذين بهتوا.. وفوجئوا..، وأخذه أسيرًا.

ففر الباقون وانهزموا إلى داخل الحصن، فحاصرهم «خالد» وأقام عليهم، فطلبوا الصلح.. فأباهُ عليهم، ورفض مبادرتهم بعد أن حاربُوا وقاتلُوا...

ثم اقتحم عليهم حصنهم، وسبى منهم عددًا كبيرًا، وقتل عددًا لا يحصى، فيهم «عقة» قائدهم...

وعثر «خالد» على أربعين غلامًا في بيعة لهم يتعلمون الإنجيل، فأخذهم وأخرجهم مما هم فيه، كان منهم: «سيرين» والد «محمد بن سيرين» و «نصير» أبو «موسى بن نصير» وغيرهما.

وخاض «خالد» بعد ذلك معارك فرعية هى على التوالى: معركة «دومة الجندل» ووقعة «حصيد والخافس» ووقعة «مصيخ بنى البرشاء» ووقعة «الثنى والزحيل».

حَجُّ خالد سِرًّا!!

ومع إطلالة شهر «ذى الحجة» من ذلك العام، وأواخر «ذى القعدة» تحركت في نفس «خالد» عوامل الشوق ودوافعه إلى زيارة بيت الله الحرام، وأداء الفريضة، خصوصًا وأنه –رضى الله عنه– قد وطّأ الأرض العراقية، أكثرها تقريبًا..،

فخرج سرًّا، مع بعض صحبه إلى «مكة»، فأدى فريضة ربه سبحانه وتعالى، وعاد من ثم إلى مواقعه في العراق.

لكن «الصّدّيق» -رضى الله عنه- بلغه أمر حجه وتركه جنده في العراق وخروجه من بينهم ولم يستأذن «خالد» الخليفة في ذلك.

فأرسل إليه يعاتبه ويحذره من العودة إلى مثل مافعل، حتى ولو كان الحج..!!

وكان هذا التصرف من «خالد» -رضى الله عنه- في غير محلِّه، وهو خطأ حقا!!!

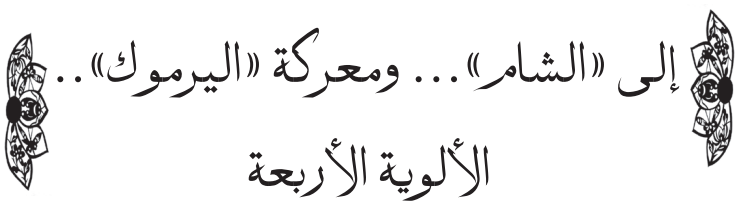

إلى «الشام»... ومعركة «اليرموك».. الألوية الأربعة

بعد أن استتب للخليفة «الصديق» -رضى الله عنه- الأمر في الجزيرة العربية، وخرست ألسنة الفتنة، وانتهت حروب الردة توجه إلى ما كان قد عزم عليه رسول الله ﷺ من قبل في غزو الشام وفتحه ونشر الإسلام في ربوعه.

فعقد - رضى الله عنه- أربعة ألْوية لأربعة جيوش، بقيادة أبطال من المسلمين عرفوا بالخبرة، والدربة وصدق العزم واليقين، وسلامة القلب وصفاء الإيمان؛ هم: أمين الأمة «أبو عبيدة بن الجراح» و«عمرو بن العاص»، و«شُرَحبيل بن حسنة» و«يزيد بن أبى سفيان» -رضى الله عنهم- ووجههم إلى «الشام» باتجاهات مختلفة على أن تكون القيادة العامة إذا ما اجتمعوا لِـ «أبى عبيدة» -رضى الله عنه- وقد نَصَحهم ووصاهم ودعا لهم بخير؛ وودَّعهم في مسيرهم إلى خارج «المدينة».

تَجَمُّع الرُّوم

خرجت جيوش الإسلام الأربعة، وعدد كل منها ثمانية آلاف جندى فيهم من أجلاء الصحابة وأعلامهم العدد العديد، واتجهوا كلٌّ إلى غايته وهدفه الذى حدد له.

وبعد أن توغلوا في أرض الأردن وفلسطين، وصلت أنباؤهم إلى «هرقل» - قيصر الروم- فعقد مجلس حر به، واستشار أصحابه وعملاءه، ثم اتخذ قراره بمواجهة المسلمين سريعًا وضربهم ضربة حاسمة؛ وبدأ التحرك...

رَأْىُ «ابن العاص» -رضى الله عنه-

لقد أُثر عن «عمرو بن العاص» - رضى الله عنه- الذكاء والدَّهاء، وسعَة الحيلة، وصواب الرأى..، فلما بلغته أنباء ماعزم عليه «هرقل»، راسل إخوانه من القادة، وعرض عليهم التجمُّع في مكان واحد حتى لا يُؤْخذوا فرادى كما يتمنى «هرقل» ويشتهى. ثم يراسلون الخليفة - الصديق- في «المدينة» يستشيرونه ويستمدّونه.

فوافقوه على رأيه، واجتمعُوا قريبًا من «اليرموك»، وبعثوا إلى «الصِّدِّيق» في «المدينة» يعرضون عليه «الموقف» فوافقهم على خطتهم، وطلب إليهم أن يتريثوا في المواجهة حتى يصلهم المدد.

«خالد» إلى «الشام»

ولم يطل تفكير «الصديق» في الأمر، فأرسل إلى «العراق» يطلب من «خالد» -رضى الله عنه- أن يترك مع «المثنى بن حارثة» نصف الجيش،

ويحمل النصف الآخر إلى الشام ليكون ردْءًا ومددًا لإخوانه هناك، مبينا له صعوبة موقفهم، وخطورة الأمر الذى يواجهون.

أعظم مغامرة عسكرية عرفها التاريخ

هذا العنوان - يابنى العزيز- لايحمل أدنى مبالغة، وليس أضخم من الواقع التاريخى..، لأن اجتياز الصحراء مرورًا ببادية «الشام» التى تعرف ببادية «السماوة» في سرِّية وكتمان وبعد عن عيون العدو، وفى أيام قلائل..، ومفاجأة «الرومان» من ورائهم...، بأربعة آلاف جندى..، كل ذلك يعد ضربًا من الخيال والأسطورة، والمغامرة التى لم تؤثر إلا عن «خالد» - رضى الله عنه.

فحين وصل إليه كتاب الخليفة، الصِّدِّيق - رضى الله عنه - قرأه بإمعان وروِيَّة، ثم فكر بالخطة الواجب اتباعها في التنفيذ وهى تتطلب الأمور التالية: (1) السرعة (2) السرِّيّة (3) التحمُّل.

وبعد أن عرض الأمر على كبار مستشاريه وأعوانه سأل عن دليل يعرف مَسَاربَ الصحراء وطرقاتها، ومفازاتها الشاسعة، وأَيْن توجد الآبار الجمعية التى تختزن في جوفها مياه الأمطار...

فانبرى من بين الحاضرين أحدهم ويدعى «عامرًا»، وكان من صعاليك العدو في جاهليته، .. كان يغزو مضارب القبائل وخيامهم ويسطو عليها، ويحمل منها ماتقع عليه يده، ثم ينطلق إلى الصحراء وفيافيها التى لا نهاية لها، فيخزن المسروقات والمنهوبات ويجعل عليها علامات يعود إليها فيما بعد، وكان «عامر» بحكم هذه الصَّعْلكة والتشرد يعرف أين توجد بعض الآبار الجوفية.

انبرى من بَيْن الحاضرين وحمل مسؤولية الريادة، وتـحمَّل أن يكون دليلًا لـ «خالد» والمسلمين في رحلتهم التاريخية وإنجازهم العسكرى الفذّ.

تدبير آخر

ثم أعطى «خالد» أوامره أن تعطش الإبل المسنّه إلى درجة الظمأ الشديد ثم تسقى، لتختزن أكبر قدر من الماء..

لماذا؟

لأن الرحلة سوف تستغرق أيامًا، وقد يتيه الدليل عن الآبار الجوفية، عندئذٍ يستخدم ما في بطون تلك الإبل من الماء، بعد ذبْحها!!!

وهكذا كان...

وانطلق «خالد» بقواته التى بلغ تعدادها أربعة آلاف مقاتل باتجاه «الشام» معتمدًا ومتوكلا على الله تعالى، ساعيًا في سبيله، وقد ترك مع «المثنى بن حارثة» في العراق نصف الجيش.

بيْن اليأْس والرَّجاء

مضت الخيول والإبل، ومن فوقها الجنود، تخبّ فوق رمالِ الصَّحراء، الشَّمْس تلفح وجوههم في النهار، ولهيبُ الرِّمال الساخنة يتصاعدُ كأنه البُخار، فيوحى بالسّراب..، وزمهرير الليل يلسع الأبدان فيمسها بقشعريرة كأنها رجعة الحمى...

حتى مضت أيام، وقارب الماء على النفاد، والجند في جهد ونصب وتعب، يوشكون على الهلاك، و «خالد» - رضى الله عنه- لايرحم نفسه ولا جنده، بل كل غايته وهدفه أن يبلغ مجتمع جند المسلمين في الشام... وكأنه في شوقه

إلى المعركة مشتاق إلى حبيبة أو عزيز غائب!!! لا يبالى بما يلقى من الصعاب وما يعترضه من المشقات.

ضعف البصر وقوة البصيرة

وسئل «عامر» الدليل عن أقرب بئر..، فقال- وقد كَلَّ بصره وضعف: انظروا إلى ناحية كذا، تروْن جبليْن كأنهما ثديان، وفي المقابل لهما شجرة عند أسفلها البئر..، وإلّا فإنه والله الهلاك الذى مابعده هلاك.

وخرجت كوكبة من الفرسان تستطلع المكان، وعادوا وعلى وجوههم إشراقة الأمل والرجاء، بعد اليأس والقنوط الذى حلّ بالناس، وأخبروهم بصدق الوصف الذى وصفه دليلهم الأريب..

فانطلقوا جميعا حتى حاذوا البئر، فأقاموا عندها للراحة، ثم شربوا وتزوّدوا بما يلزمهم لبقية الطريق الطويل، وروّوا خيلهم وإبلهم.

ذكاءُ «خالد» وفطنته

وكان «خالد» -رضى الله عنه- يعرف بحكم ذكائه وخبرته أن الجنْد إذا مااستراحوا أكثر من الحاجة والضرورة فإن الاسترخاء يأخذ سبيله إليهم، وهذا ما كان يخشاه ويتحاشاه..، فلمَّا مرَّ بعض الوقت أعطى أوامره بالنهوض والاستعداد للرحيل..

وانطلقوا من جديد..

تفادى «الرُّوم»

وكان -رضى الله عنه- كما قدّمنا يعتمد مبدأ السّرية في تحركه هذا ليكون عنصر المفاجأة داعيا إلى تحبيط عزم العدو وسببا في إرباكه، فلما قارب

«دمشق» عرج عنها موغلًا في الصحراء، وكذلك عن باقى المناطق الآهلة بالناس والسكان.

في «اليرْموك»

وانقضت أيام الرحلة التاريخية ...

ووصل «خالد» إلى «اليرموك» حيث تجمع القوات الإسلامية، والروم في مواجهتهم.

هؤلاء لايناجزون أولئك، وأولئك لا يناجزون هؤلاء... كُلٌّ ينتظر الآخر، ليسبر غوره، ويعرف مدى قوته، ويتعرف إلى خطته، وأساليبه في القتال.

ولاتسل -يابُنى العزيز- عن فرحة المسلمين بوصول المدد إليهم، خصوصا وأن على رأس هذا المدد «سيف الله» - «خالد بن الوليد» - رضى الله عنه-..

ولقد لحظ معسكر الروم ذلك، ورأى أيضًا وصول المدد، والغبار الذى غطى وجه السماء بفعل وقع حوافر الخيل وهى مسرعة..، تنهب الأرض نهبا، وكذلك أخفاف الإبل وهى تخبّ خبًّا...

وما من شك أن ذلك كله قد ترك في قلوب الأعداء أثرًا، وتسرب إليهم شيء من الخوف وشيء من الوهن.

القيادة الموحّدة والتنظيم الجديد

وفي خيمة القيادة العامة اجتمع «خالد» إلى إخوانه: «أبى عبيدة» و«عمرو ابن العاص» و«يزيد بن أبى سفيان» و «شُرحبيل بن حسنة» وغيرهم، وبعد

أن رحَّبُوا بقدومه وحكى لهم تفاصيل رحلته التاريخية ومغامرته الفذة، تحدث إليهم عن شؤون الساعة وحالة الموقف الراهن.

فعرف منهم: تعداد جيش الأعداء، ومن معهم من قبائل نصارى العرب، وأجنحة معسكرهم الضخم الواسع الذى يملأ الوديان ويغطى السهول، ونُهيْر «اليرموك» الذى يحجز بين الفريقين..، وأنهم في مناوشاتهم القليلة المحدودة مع العدوّ قد عرفوا كذا وكذا من خططه وأساليبه، وأنهم قد انصاعوا لأوامر الخليفة «الصِّدِّيق» بعدم الاشتباك مع العدو في معركة حاسمة قبل وصول المدد إليهم...

وأدرك «خالد» بثاقب فكره، وبُعد نظره، واستيعابه للموقف الراهن أنه لابُد من تغير أساسيّ في نمط القتال وأسلوب المواجهة التى اعتادها العرب والمسلمون من قبل..

لم يعد هناك من سبيل إلى القتال تحت رايات القبائل وشعاراتها، إذ تقاتل إحداها العدو بأسلوبها الخاص ومنطق عصبيتها...، بل لا بدَّ من الدَّمْج والتنظيم.. تنظيم الخيالة...، وتنظيم المشاة..

والقلْب والأجنحة والمقدّمة...، والخدْمة والتموين..، وكل مامن شأنه أن يقلب الموازين التقليدية في القتال والأساليب.

وأيضًا..

فقد كان «خالد» يعرف أن أمر القيادة العامة للجيوش الإسلامية الموجودة في الشام قد أو كلَ إلى «أبى عُبَيْدة» - «عامر بن الجراح» - رضى الله عنه- بأمْر من الخليفة «الصِّدِّيق» في «المدينة».

وهو يعرف مكانة «أبى عبيدة» ومقامه ومنزلته، وكفاءته وقدرته، ولكن الأمر يحتاج إلى «خالد»!!! إليه هُو..

فعرض على إخوانه خطته التنظيمية الجديدة التى يرتئيها مناسبةً، فوافقوه عليها جميعًا يثقون به ثقة مطلقة لاحدّ لها.

وإزاء الحرج الذى كان يضيق به صدره من التعرُّض للقيادة دون «أبى عُبَيْدة»، عرض «خالد» على إخوانه أن يتبادلُوا على التوالى قيادة الجيش الإسلامى، ويكون هو أوّلهم إن شاؤُوا..!؟

ولقيت الفكرة ترحيبًا من الجميع، وبايعوا «خالدًا» على خطّتِهِ وقيادته، وعاهدوا الله تعالى أن لا يقصّروا في مواجهة العدوّ حتى يظفروا بإحدى الحُسنيين: النَّصْر أو الشهادة!!

«الكراديس»

ظهرت هذه الكلمة -يابُنى العزيز- لأوّل مرَّة في معركة «اليرموك»، ولم تكن تعرف أو تسمع من قبل في تنظيم الجيوش الإسلامية المقاتلة، سواء في عَهْد رسول الله ﷺ أو من بْعده.

ومفردها: «كردوس».

وكانت تعنى يوم «اليرموك» ألْف جُندى، فكأنها كتيبة!!

لقد بلغ عدد جيش المسلمين يومذاك ستة وثلاثين ألف جندى، بين فارس وراجل، بعد أن انضم إليهم «خالد» بمَدَده القادم من «العراق» فقسم «خالد» الجيش إلى ستة وثلاثين كردوسًا، وجَعَلَ على قيادة كل منها بطلًا من أبطال المسلمين، ممن اشتهروا في الميادين والمعارك.

ثمّ ولّى قيادة الأفرع: القلْب والمقدمة والجناحين والمؤخّرة إلى إخوانه «أبى عبيدة» وصَحْبه، وتولّى هو القيادة العامة؛ ونَزَل إلى الميدان يستعرض الصفوف، ويوجّه الجنود، ويذكّرهم بالله ورسُوله، ويحثهم على الثبات.

ما أكثر الرُّوم!!!

وفي أثناء تطوافه - رضى الله عنه- يحض المؤمنين على الجهاد ويحرّضهم على القتال، ويتلو عليهم بعضًا من آيات كتاب الله..، سُمِع أحد الجند يقول لصاحبه:

- ما أكثر الروم... وأَقَلَّ المسلمين...

[صحيح..، فقد كان عدد الجيش الرومانى يومئذ يزيد على مائتى أَلْفٍ من الجند، قد انضم إليهم عدد عديد من قبائل نصارى العرب، من «غسان» و «لَخم» و «جذام»...، حتى كانوا كما ذكرنا آنفًا يملؤون الوديان ويغطّون السُّهول والآكام].

نظر «خالد» -رضى الله عنه- إلى الجندى الذى قال ما قال من غير أن يُعنِّفه أو يصرخ في وجهه، وقال في هدوء وثقة وطمأنينة:

- بل قُل ما أكثر المسلمين وأقلّ الروم، إنما يكثر الجند بالنّصر والإيمان، ويقلّ بالكفر والخذلان، وما النصر إلا من عند الله تعالى...

ثم مضى، بعد أن ردّ إلى نفس هذا الجندى ثقته بالله سبحانه، وثبته على يقينه وإيمانه.

حيَّ على الجهاد

وطلب «خالد» -رضى الله عنه - إلى بعض القُرّاء من المسلمين أن يتلُوا على إخوانهم طائفة من آيات كتاب الله تعالى، من سورة «الأنفال» وغيرها، ليُذكروهم ويعظوهم ويشدوا أزْرهم وعزائمهم.

ثم أَذَّن مؤذِّن الجيْش أن حيَّ على الجهاد، فَعَلَتْ نداءاتُ التكبير والتَّوحيد، والتهليل...، وضَجَّتْ بها الأرجاء...

ونزل «خالد»إلى الميدان يطلب المبارزة والطِّعان، فقد كانت العادة المتبعة في ذلك الحين، قبل التحام الجيوش...

فنزل إليه علج من الرُّوم...

والعِلجُ هو أحد القادة الفُرسان...

وما هى إلا جوْلة أو جوْلتان حتى كان العلج طريحًا أرضًا يَشْخُبُ دمًا ويلفظ أنفاسه...

وعاود «خالدٌ» مطالبة الروم بالنِّزال...، فنزل إليه علج آخر، قضى عليه «خالد» في لحظات...

وهكذا إلى أن قضى على مايزيد على عشرة من فرسانهم الذين تصدّوا لمبارزته.

المعركة

وهنا توقف الروم عن المبارزة، ثم «قرعت طُبُولهم، وصدحت أبواقهم، وتهيؤوا للالْتحام.

[وقبل الدخول في تفاصيل المعركة أحبُّ أن ألفت نظرك -يابنى العزيز- إلى قيمة معركة «اليرموك» في التاريخ...

1 - لقد كانت مفتاح «الشام» كله، والانسياح في الديار إلى ما بعده، إلى «مصر» جنوبًا، وإلى أرض آسية الصُّغرى شمالًا، وإلى غزو البحر غَرْبًا، وإلى «القادسية» شرقًا...

2 - وهى لا تُذْكر... إلا ويذكر معها اسم «خالد» -رضى الله عنه-- كعبقرية عسكرية في القيادة والتخطيط والقُدوة..].

ولئن قُدِّر لمعركة «القادسية» بَيْن المسلمين و «الفرس»، في العراق، أن تَسْتَغْرق أيّامًا، ولكل يوْم اسْم يعرف به، فإن معركة «اليرموك» لم تستغرق زمنًا.. إلا يسيرا، لم يَعد اليومين!!

الْتَحَم الطّرفان، وتقابل الفريقان...

وعلا الغبار في كلّ مكان، وغطى صفحة السّماء، وضجَّت الأرض وكذلك رحب الفضاء بصهيل الخيل وحَمْحمتها، وصيحات المتقاتلين وصرخاتهم وكانت تلمع فوق الرؤوس أشفار السيوف وأسنّة الرماح.. وتمتلئ الأرض بالجثث تنزف الدِّماء، ثم تزهق الأرواح...

ولقد كانت لجحافل الروم وكثرتهم غلبةٌ في أول الأمْر..، فأثّر اندفاعهم إلى الميدان واصطدامهم بالمسلمين، وأحدث بعض الخلل، مما فتح ثغرةً إلى قلْب الجيش الإسلامى...

وتنادى الناس، وتعارفوا.. وتصايَحُوا..، وذكَّر بعضهم بعضًا، ويذكر بعض المؤرخين أن من أبرز الأشخاص الذين ظهروا يوم «اليرموك» بندائهم وصياحهم كان «أبو سفيان»- «صَخْر بن حرب بن أمية»،.. إذ خرج إلى صفوف الناس يذكر المهاجرين بسبقهم والأنصار بإيوائهم رسُول الله ﷺ، والمسلمين عمومًا بكتاب الله وآياته.

فأصابه سهْم من سهام الأعداء في إحدى عينيْه..، فكان ذلك له أعظم وسام ناله في ميدان قتال.

ولاننسى أن «أبا سفيان» كان من قبل فتح «مكة» سنة ثمان للهجرة من أعدى أعداء الإسلام، وأشدّ الجاهلين قرْبًا على الله ورسُوله.

فانظر – يابنى العزيز– كيف جعل الإسلام من هذا الإنسان طرْزا آخر، ونمطًا جديدا، يستعْذب الأذى في الله ولا يُبالى.

ولقد كان «أبو سفيان»، بعد «اليرمُوك» يُفاخر بما أصابه في عَينه!!!

المبايعةُ على الشهادة

ونادى «خالدٌ» في الناس مَنْ يبايعه على الشهادة في سبيل الله!! فبايعه أربعمائة من أشداء فرسان المسلمين وأبطالهم، أمثال: «المقداد بن عمرو» و «ضرار بن الأزْور»...

فانطلق بهم «خالد» يردُّ ويصدّ هجمة الروم، حتى أفْلحوا..، وانطفأت تلك الهَجمة دون أن تحقق غرضها، أو تبلغ هدفها، اللهُمَّ إلّا عناصر من المسلمين كتب لهم الله الكرامة عنده، فسقطوا شهداء..

ثم إن «خالدًا» ومن معه توغَّلُوا في صفوف العدو يخترقونها، ويمزقون تماسكها، حتى زلزلوها عن مواقعها، وألجئوها إلى الاحتماء في رؤوس الآكام وذُرا الجبال القصيّة...

لكنّ شمس اليوم الأول كانت قد آذنت بالمغيب.. ولم يحقّق طرف على الآخر نصرًا حاسمًا..

فانحاز كل فريق إلى معسكره بعد أن فصل الظلام الدامس بينهما.

أخلاق الإسلام

يَقول أحد الجنود المسلمين الذين خاضوا المعركة، واسمُه: «حُذيفة العدوىّ»: انطلقْتُ يوم «اليرموك» أبحث عن ابن عم لى بين القتلى، وقد أطبق الظلام الحالك بسواده على الميدان...

فلمّا وصلْتُ إليه بعد بحثٍ وتفتيش وجدتهُ على آخر رمق، فيه جراحات كثيرة، فرفعتُ سقائى الذى كنت أحمل لأسقيه شربة ماء، فإذا بى أسْمع صوت استغاثة من بعيد، وأنين..، فأشار إلىَّ ابن عمى أن أذهب إلى مصدر الصوت، لعل صاحبه بحاجة إلى الماء أكثر..، فذهبت.. فلما اقتربْت وحاولت سقياه.. سمعت أيضًا أنينًا ونداء استغاثة..، فأشار إلىَّ الجريح أن أذهب إلى ناحية أخيه..

فلمَّا بلغته.. كان قد لفظ أنفاسه، فعدتُ إلى الآخر، فإذا هو أيضًا قد مات، ورجعت إلى ابن عمّى، فإذا هو قد مات..

ياسُبْحان الله، كُلٌّ يؤْثر صاحبه على نفسه بشربة ماء لعلَّ فيها ما يسدّ الرمق، ويريح من حشرجة الموْت!!!

بهذا الخلق العظيم، خلق الإيثار والتضحية.. كان نصر الإسلام وانتصار المسلمين، ليس في «اليرموك» فحسب، إنما في كل الميادين.صدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9].

الْحَسْم...!

في الليلة الأولى، وقد حاول «خالد» أنْ يأخذ قسطا من الراحة...، وبينا هو في خيمتِهِ، جاءه من يستدعيه إلى خيمة «أبى عبيدة» -رضى الله عنه- لأمر مهم وعاجل..

فبادَر «خالد» في الخروج، وعندما دخل على «أبى عبيدة» قدّم له «أبو عبيدة» رسالة يحملها رسول من «المدينة»، تنبئ بوفاة «أبى بكر الصدِّيق»- رضى الله عنه- واستخلاف «عمر بن الخطاب» -رضى الله عنه - مكانه...

وليس هذا فقط..

بل هناك أمر آخر، من أخطر وأدهى ما واجه «خالدًا» في حياته، هو عزله عن القيادة وتولية «أبى عبيدة» مكانه، أو بالأحرى عوْد «أبى عبيدة» إلى القيادة العامة التى كان يتولاها قبلا...

نظر «خالد» إلى الكتاب بإمْعان، ثم استرجع الله تعالى، وترحَّم على «أبى بكر» -رضى الله عنه- ثم قال:

- لا يضيرنى أن أكون حتى جنديًا عاديًا في صفوف المسلمين، فأنا لا أقاتل من أجل «عمر»!!!

ثم طلب من «أبى عبيدة» كتمان الأمر حتى لا تقع البلبلة في صفوف المسلمين ويصابوا بالهزيمة، وأن يبقى الأمر على ماهو عليه إلى حين الحسْم... فوافقه «أبو عبيدة» على ذلك.

ومن بزوغ فجر اليوم التالى، كان نهوض «خالد» إلى الميدان، قد سبق جنده، ثم استقبلهم ونظمهم واستعرضهم، وحثّهم وحرَّضهم...، وكأن شيئا لم يكن.

بل كان أشد حماسًا واندفاعًا..، يريد أن لا ينقضى هذا اليوم إلّا وراية النصر تخفق فوق رؤوس المسلمين - بإذن الله- وأكاليل الغار تُضَفّر هامات الأبطال وأذيال الخيبة والفشل والهزيمة تلحق بالروم.

ولقد كان سيِّدنا «أبو بكر» -رضى الله عنه- على صواب وصدق في اختيار «خالد» لنجدة المسلمين في «الشام»، وتوْليته القيادة، ولقد قال-رضى الله عنه: يومذاك كلمة مشهورة تنصف «خالدًا»، وتضعه في الإطار الذى يستحقّه من التقدير والتكريم.

قال «أبو بكر» -رضى الله عنه- عندما أتاهُ كتاب قادتِه في الشام يستنجدونه ويستَمدّونه:

-(لأُنْسِيَنَّ الروم وساوس الشّيْطان بـ «خالد بن الوليد»)!!!

واندفع الجيش الإسلامى بكُل قُواتِه إلى جيش الروم، وبكل العزم والحزم والصّدق، وفي المقدمة «خالد» على رأس الفرسان الأشدّاء...، ودارت رحى المعركة من جديد، تطحن بين فكَّيْها جحافل الروم...

ولم يكد ينتصف النهار حتى كانت الهزيمة الشّنعاء قد حلت بالروم، وبدأوا يتقهقرون...، ثم يفرّون...، وكم سقط منهم في مياه «اليرموك» غريقًا فمات، وقد شَدَّ معه من هو مربوط إليهم بالسلاسل... فسقطوا وابتلعتهم المياه.

وأدبر قائدهم يسعى باتجاه الشمال، فارًّا بنفسه وحاشيته، وتفرّق أكثر الجند الرومى أشتاتا، وخلا منهم الميدان.

وعاد «خالد» - رضى الله عنه- إلى خيمته... وإلى جنديته... وقد أعلن نبأ وفاة «أبى بكر» في الجيش، وتولية «أبى عبيدة» القيادة العامّة، بأمْر من الخليفة الجديد، الفاروق «عمر بن الخطاب» -رضى الله عنه.

وهكذا - يابنى العزيز- تحققت للمسلمين في «اليرموك»، سنة ثلاث عشرة للهجرة النبوية الشريفة أعظم النتائج وأروع الانتصارات، ونبوءَة المصطفى ﷺ بزوال ملك الروم عن الديار الشامية.

فتحُ «دمشق»

وهنا قد يخطر على بالك سؤال: هل انتهى دور «خالد» -رضى الله عنه- في الفتح الإسلامى، في الشام كُلّها، بعد عزله عن القيادة؟

أبدًا...

ولقد أجاب هو عن ذلك في إبان احتدام معركة «اليرموك» إذ قال:

- أنا لا أقاتل من أجل «عمر»!!

فظل -رضى الله عنه- اليد اليمنى لـ «أبى عبيدة»، وطليعة قواته، وقائد خيله، أَنّى اتَّجه وكيفما سار.

وبعد أن هزم الروم هزيمتهم النكراء في «اليرموك»، واتجه «هرقْل» بفلول قواته إلى الشمال، لحقت بهم القوات الإسلامية، حتى نزلت «دمشق»، وكانت مدينة حصينة، ذات أسوار عالية، وأبراج مشيّدة، فَضَرب «أبو عُبَيْدة» عليها الحصار من كل جهة وناحية، ولم يترك لها منفذًا.

من ناحية «خالد» رضى الله عنه

وطال أمد الحصار، ولم يكن «خالد» ليستكين أو يهدأ من غير قتال، وكيف يسكت عن مناجزة الأعداء التابعين خلف أسوارهم في أمن وأمان وطمأنينة؟؟

وفي ذات ليلة، وقد عرف «خالد» أن جند الرومان داخل «دمشق» يحتفلون بمَوْلودٍ لكبيرهم وقائدهم، وأنَّهم قد طربوا وشربوا حتى أفقدهم السكر وعيهم فعمد إلى صُنْع سلالم من الحبال الغليظة، وجعل في أطرافها ما يُشبه شناكيل الحديد، ورمى بها إلى أعلى الأسوار.. فعلقت، ثم أعطى أوامره لبعض الشجعان من جنده أن يتسلقوها حتى يبلغوا أعلى الأسوار، ثم يكون التكبير من فوقها كلمة السِّرّ..، عندئذ تندفع بقية القوات من خلال الأبواب الضخمة.. بعد أن تفتح..

وهكذا كان...

وفي هدأة الليل نفّذ «خالد» خطته هذه، ولقد فوجئ حرس الروم وجندهم داخل الأسوار بجند المسلمين يقتحمون عليهم مدينتهم الحصينة...

كان التنفيذ في الجهة التى يعسكر فيه «خالد» بقواته..، أما من ناحية «أبى عبيدة» والقيادة العامة، فقد كان كُل شيء عاديًا...

الصُّلح

وأسرع قائد المدينة وحاكمها إلى إرسال مندوب عنه إلى «أبى عبيدة» يعرض عليه الصُّلْح، ويطلب إليه وقف قوات «خالد» عن التقدُّم داخل «المدينة»...

واستجاب «أبو عبيدة» للطلب، وأمر «خالد» بوقف الزحف والهجوم، ثم عقد صُلْحًا مع حاكم المدينة التى استسلمتْ للمسلمين.

من «دمشق» إلى «فِحْل»

وكانت «فِحْل» قاعدة في القواعد الرومانية الهامة في أرض الشام، فلابُدَّ من إنجاز فَتْحها كى لاتكون خطرًا يتهدّد المسلمين في زحفهم إلى الشمال، لتطهير كُلّ الديار الشامية في سلطان الروم... والقضاء على نفوذهم.

ولقد كان لِـ «خالد» -رضى الله عنه- في هزيمة الروم أيضًا يوْم «فحل» يد طولى وباعٌ ظاهر.

وإلى «حمْص»!!

واتجه المسلمون بقيادة «أبى عبيدة» شمالًا إلى «حمص»، وكانت مدينة كبيرة، ذات أسوار وحصون، فتمَّ فتحها صُلحًا...، ثم ترك فيها «أبو عبيدة» حامية من المسلمين، تدير شؤونها، وتقوم على تدبير أمورها، وترعى حاجياتها ومُتطلباتها، واتجه إلى «حماة»..

ففُتحت هى أيضًا صلحا..

واستمرَّ الزحف إلى الشمال حتى بلغت جيوش الإسلام مدينة «حلب» فتقلّبوا على حاميتها من الروم، وفتحوها ودخلوها، وترك «أبو عبيدة» القائد العام منها -أيضًا- حامية، كما كان يفعل في كل بلد، واتجه بعد ذلك إلى «إنطاكية»، وهى أقرب مدن الشام في حدود آسية الصُّغرى.

وأنت تلاحظ - يابنى العزيز- أننا نَسْردُ عملية الفتح للمدن الشامية الشمالية سرْدًا سريعًا، وسبب ذلك أنها لم تخض في وجه المسلمين معارك ذات شأن.

اللهم إلا ما كان من أمر مدينة «اللاذقية» الساحلية، ثم انتهاض الروم، وتجمع قلوبهم، ومحاصرة «حمص» وحاميتها الإسلامية، ولسوْف نعرض لكل منها فى حينه - إن شاء الله تعالى.

فَتْح «اللاذقية»

لئن قُدِّر لكثير من ديار الشام أن تشهد بطولات «خالد» - رضى الله عنه- واقتحاماته وجرأته، وخططه المحكمة، فإن مدينة «اللاذقية» بالذات تشهد أيضًا لعبقرية «أبى عبيدة» العسكرية.

و «أبو عبيدة» - رضى الله عنه- بالإضافة إلى رقة خلقه، ودماثة طبعه، ولينه..، وشدة ورعه وفقهه في دين الله، كان أيضًا على جانب وفير وكبير من حسن القيادة العسكرية، والإقدام، وإحكام الخطط.

و «اللاذقية» -يابنى العزيز- ميناء على البحر الأبيض المتوسط، في الشمال الشامى، كانت تحيطها الأسوار العالية... ولها منفذ على البحر يسهِّل عليها

طرق المواصلات البحرية، فلا تشعر بحرج الحصار ولا شدته، مهما طال أمده، وامتدّ زمانه.

فلما أتاها «أبو عبيدة» بقوات المسلمين يريد فتحها واقتحامها استعصت عليه وامتنعت وأغلقت أبوابها، وصمدت في وجه الجيش الإسلامى أيامًا طوالًا.

خطة مُبْتَكرة

وفي ليلةٍ قضاها «أبو عبيدة» ساهرًا يفكر ويدبّر في طريقة يجعل بها أهل المدينة ومحاربيها يخرجون للمواجهة والقتال..

ومن نقطة واحدة، وطرف خيط، توصل إلى وضع الخطة المناسبة، فقد كان أهل «اللاذقية» مزارعين، تنتشر بساتينُهُم وأراضيهم الزراعية خارج الأسوار، ولا بد لهم من السَّعى على أراضيهم وأرزاقهم، هذا إذا أمِنُوا العدوّ...!

عندئذ تفتق ذهْن «أبى عبيدة» عن تدبير فيه جهد ومشقة ولكنه مضمون النتائج..، وارتسمت على ثغره ابتسامة مشرقة، وانفرجت أسارير وجهه...

ومع قدوم ظلام الليلة التالية، طَلَب «أبو عبيدة» من كل فرد من أفراد جُنده أن يحفر حُفرة... ثم يختبئ فيها ولا يظهر منه شيء، حتى الفارس مع فرسه..!

فنفذوا جميعًا تلك المهمة الصعبة، وقبعُوا في حُفرهم مختبئين، فلما أشرق الصباح، وسطع نور الشمس، نادى حَرَسُ المدينة من فوق الأبراج أنّ المسلمين قد فكّوا الحصار على المدينة.. وارتحلوا، ولم يعد يظهر لهم أدنى أثر..

فاطمأن الناس، وفتحوا أبوابهم، وخرجوا إلى مزارعهم..، ولما أصبح أكثرهم خارج الأسوار هبّت من تحت الأرض قوات المسلمين، وكأنهم الجن

قد انشق عنهم بطن الأرض، وطفروا من هنا وهناك...، وأحاطوا بالناس، وبادر الفرسان إلى الأبواب يقتحمونها، ويعملون السيف في رقاب الجند الرومانى.

وهكذا سقطت مدينة اللاذقية في أيدى المسلمين، وتطهّرت من رجْس الروم ودنسهم.

ولا يسعُنا هنا أنْ نغفل دور «خالد» -رضى الله عنه- فقد كان واحدًا من القادة الذين أتقنوا صنعة القتال، وكان خير عوْن لـ «أبى عبيدة» -رضى الله عنه- في تنفيذ الخطة وإحكام التدبير.

إلى «حمص» للمرَّة الثانية

كانت قوات الجيوش الرومانية ماتزال تعمل في الأراضى الشامية، فإذا ما هزمت في معركة «وفرَّت»، جمعت فلولها من جديد وعاودت الكرَّة تِلو الكرَّة لعلها تظفر ذات يوم على المسلمين.

ولكن.. أنَّى لها ذلك، وقد كتب الله تعالى على نفسه أن يَنصر المؤمنين، المجاهدين في سبيله وإعلاء كلمته.

وعليه، فقد تجمَّعت بعض القوات الرومانية، وقصدت «حِمْص» وطوقتها، وضيقت الخناق على الحامية الإسلامية القليلة العدد، الموجودة داخلها.. وأرسلت الحامية نداءَ استغاثةٍ إلى «أبى عبيدة» تطلب النجدة، وتخبر بما كان من أمر القوات الرومانية في محاصرة «حمص»، وخطورة الأمر..

هنا يأتى دور «خالد» -رضى الله عنه- وتبرز شجاعته وجرأته وكفاءته؛ إذ أرسله «أبو عبيدة» في قوة من الفرسان المسلمين لمناجزة الروم ومشاغلتهم

حتى يمكن القائد العام أن يجمع قواته من هنا وهناك، ثم يبادر بهم إلى «حمص» لنجدتها وفك الحصار عنها، ومنازلة الرومان.

خالد في مواجهة «الروم» عند «حِمْص»

وعلى جناح السرعة، ومن غير إبطاء ولا تَأخّر كان «خالد» -رضى الله عنه- يطوى الأرض مع جُنده وفرسانه، ثم يفاجئ الرُّوم... ويُغير عليهم، ويناجزهم ويشاغلهم..، وكأنه يلهو بهم...

ولما علم الروم بأن قوات «أبى عبيدة» قد قاربت الوصول إلى «حمص» فكوا عنها الحصار... وارتحلوا...

وهذا كان آخر عهدهم بالديار الشامية.

ولقد وقف «هِرَقل» فوق جوادِه، ينظر بعين الأسى والحسرة إلى كل الأراضى الشامية، التى أقاموا فيها قرونًا، وامتصوا خيراتها ودماء أبنائها دهُورًا.

ثم قال:

سلامٌ عليك ياسورية، سلامٌ لا لقاء بَعْده.

فَتْحُ «بَيْتِ المقدس»

يرى بعض المؤرخين أن فتح «بيت المقدس» قد تأخَّر إلى ما بعد فتح «حمص» و «دمشق» وباقى المدن الشامية الرئيسية، وسبب ذلك أن «الروم» قد أخلوها من قبل، وكانت جيوشهم وعساكرهم قد انتشرت خارجها وبعيدًا عنها لمواجهة جيوش المسلمين الزاحفة إلى مختلف بقاع الشام، ولم يبق

في «بيت المقدس» سوى حامية صغيرة، قليلة العدد، وكثير من رجال الدين النصارى...، لذا تأخَّر فتحها.

ويرى آخرون بأن فتحها قد سَبَقَ كُل ذلك، ونحن نميل إلى الرأى الأول.

أحاطت قوات الجيوش الإسلامية بأسوار «القدس» وضيَّقت عليها الحصار، وقطعت عنها كل الأمداد، وانتظرت الفرصة السانحة لفتح ثغرةٍ في جهة من جهاتها تنقض من خلالها على المدينة..

ولعلّ قدسيتها الدينية ومكانتها الروحية قد فرضت هذا الموقف.

ولقد جَرَتْ بعض المفاوضات بَيْن «أبى عبيدة» وبين «بطريق» المدينة بِفَكِّ الحصار والتسليم وعقد الصُّلح، استغرقت أيامًا.

رؤيا «البطريق»

لم يكن موقف النصارى من أهْل المدينة يسمح لهم بالصمود طويلًا إزاء الحصار المضروب عليهم؛ إذ لم تكن مؤنهم كافية، وكذلك قوتهم العسكرية...

ولقد اهتم «البطريق» لهذا الأمر اهتمامًا كبيرا...، وفي ذات ليلة رأى رؤيا بأنه يعقد صلحًا مع خليفة المسلمين نفسه، وليس مع قائد جيشهم المحاصر للمدينة، ولقد رأى أيضا ملامح شخصيَّة أمير المسلمين، هيئته.. وشكله.. وطوله... ولوْن بشرته؛ وأنه بموجب هذا الصلح قد حافظ على سلامة المدينة وحقن دماء أهلها.

ثم إنّه راسل «أبا عبيدة» في يومه ذاك، وطلب إليه أن يكون أمير المسلمين «عمر بن الخطاب» -رضى الله عنه- هو الذى يعقد معه الصلح ويوقّع العهد.

فأرسل «أبو عبيدة»

إلى الخليفة «الفاروق» في «المدينة المنورة» يعرض عليه الأمر.

«الفاروق» في «بيت المقدس»

وكان جواب «الفاروق» أن حَضَرَ بنفسه إلى «بيت المقدس»، ولعلَّك تعجب -يابنى العزيز- من هذا التصرُّف الذى إن دلَّ على شيء فإنما يدل على سماحة الإسلام، وسُمُوّ أخلاق أبنائه وعلُوِّ مناقبهم.

وصل أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» -رضى الله عنه- فتلقّاهُ القادة المسلمون حيث ينزلون ويعسكرون، وكان يومًا مشهودًا.

ثم عرض عليه «أبو عبيدة» الموقف من كل جوانبه، وطلب إليْه أن يتهيأ للقاء «البطريق» الذى تبلَّغ نبأ وصول خليفة المسلمين؛ من أجل التفاوض وعقد الصُّلح.

وكان «أبوعبيدة» -رضى الله عنه- قد طلب أيضًا من «الفاروق» أن يُغيّر ثوْبه وركوبَهُ...، ثوبه البسيط العادى، وناقته التى ركبها من المدينة إلى بيت المقدس.

وقدَّموا له ثوبا أبيض وبرْذَوْنًا[1] مما غنموهُ في معاركهم وحروبهم...

وكانت حجتهم في ذلك أن مستوى اللقاء مع كبراء القوم يستدعى التأنق والتجمُّل، والظهور بالمظهر المناسب لأمير المسلمين.

وقبل «عمر»..

فغير ثوبه؛ وامتطى صهوة البرذون، واستعدّ للتحرك مع مرافقيه نحو «بيت المقدس» التى فتحت أبوابها لاستقباله.

(1) البرذون : البغل.

إلا أنه كما تحدثت روايات التاريخ -قد شعر- رضى الله عنه- بشىء من الزهْو والخيلاء حين تبخْتَرَ بِهِ البرذوْن وتخايل، فقال لمن حوْله:

- أقيلونى أقال الله عثرتكم..!! لقد سمعت رسُول الله ﷺ يقول:

-[لا يدخُل الجنة مَنْ في قلبه مثقال حبة خردل من كِبر].

موكب «أمير المؤمنين»

وتقدم - رضى الله عنه- نحو أبواب المدينة المشْرعة، يحف به إخوانه وأبناؤه من جند المسلمين، فلمّا اقترب من الباب خرج إليه «البطريق» الأكبر في حشد من رجاله وأعوانه بألبستهم الزاهية وزينتهم الكاملة، وتلقوه بالترحيب والإكرام، وحيّوه بالسلام، ثم مشوا بين يديْه يجولون في أنحاء المدينة المقدسة.

مسجد «عمر»

وعند باب كنيسة القيامة، حيث يوجد ما يسمّونه قَبْر السيد «المسيح» - عليه السلام- يقوم الآن مسجد صغير يعرف باسم مسجد «عمر»..

وسبب وجود هذا المسجد في ذلك المكان، وسبب تَسميته، أن سيدنا «عمر» -رضى الله عنه- بينما كان يطوف مع «البطريق» في المدينة، أدركته الصلاة وهو عند باب كنيسة القيامة، فأراد أن يؤدّيها... فخرج...، فألح عليه البطريق أن يؤدى الصلاة في الداخل، فأَبَى سيدنا «عمر» احترامًا لمشاعر النصارى من أهل بيت المقدس، وحفاظا على مقدساتهم، وصلى عند الباب، وهناك أقيم المسجد الصغير المتواضع، وسُمّى باسم أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه.

ولا يزال هذا المسجد قائمًا إلى يومنا هذا، شاهِدًا على خُلُق التسامح الذى تأصل في وجدان المسلمين عبر العصور والدهور.

وعقد «عمر» -رضى الله عنه- مع «البطريق» عهد صُلْح، يعتبر موثقًا من مواثيق التاريخ، ودخلت المدينة المقدسة في حمى الإسلام حتى اجتاحتها من بعد جحافل الصليبيين، وفعلُوا بالمسلمين من أهلها الأفاعيل!!!

ثم حرَّرها «صلاح الدين» -رحمه الله- وأعادها إلى سابق عزها ومجدها ونقائها وطهارتها..

ومازالت في حضن الإسلام حتى ضيعها أبناؤه في القرن العشرين، ووقعت في أيدى أقْذر الناس وَأحطّهم...

فهل له من محرّر ومُنقذ؟؟

هذه الكلمات والعبارات، خواطر مسلم متألّم، جاشت في الذهن والنفس، فطفرت حروفًا خطها القلم وجرى بها على الورق، ولا حيلة لى في دَفْعِها.

عزل «خالد» «للمرة الثانية»!!

كان «خالد» -رضى الله عنه- حتى ذلك الحين قائدًا في جَيْش «أبى عبيدة» يرافقه إلى كُل مكان، ويؤدى واجبه، وما يُعهد إليه من أعمال.

وكان قد حاز كثيرًا من الغنائم ومن الفيء الذى كان يصيبه، فأثرى وكثُر ماله، واشترى بعض الضياع والمزارع والأراضى في الديار الشامية، في حدود ما أحلَّهُ الله له.

وكانت أطيب البلاد عنده وأحبها إلى قلبه مدينة «حمص»، ولعلّها في موقعها على نهر «العاصى» وكثرة خضرتها وجمال طبيعتها قد استَهْوت

«خالدًا» وجذبتْهُ إليها، فأقام فيها، وجعلها مستقره؛ فمهما شرق وغَرَّب يعود إليها.

بعد زيارة «عمر» -رضى الله عنه- إلى «بَيْت المقدس»، أصدَر أمرًا بعَزْل «خالد» عن القيادة الفرعيّة وجعله جنديًّا عاديًا!!!

ثم إنّه أصدر أمرًا آخر باستدعاء «خالد» إلى «المدينة» لمحاسبتِه!!![1].

وأريدُك- يابنى العزيز- أن لاتقع في متاهات الأقاويل والروايات التاريخية المتضاربة حول تصرفات سيدنا «عمر» -رضى الله عنه- إزاء «خالد» -رضى الله عنه-، ونسبتها أحيانًا إلى حساسيات وحزازات!!

مبادىء «عمر» -رضى الله عنه-

من المأثور عن سيدنا «عمر بن الخطاب» -رضى الله عنه- أنه كان يقول:

- لو عثرت شاةٌ في أرض السّواد[2] لخشيتُ أن أُسأل عنها.

- إن نقطة دم امرئ مسلم أَثْمن عندى من كُلّ مَغْنم.

ولقد أخذ نفسه قبل الناس بمبدأ: من أيْن لَكَ هذا؟

هذه القواعد الثلاث كانت محور العلاقة بين «عمر» وبين الناس عمومًا، و«خالد» - رضى الله عنه- منهم!! وعليه..

فإنّ اندفاع «خالد» بالجُند إلى أخطر المواقف، والمغامرة التى كانت ملازمة له، تعَرض أرواحهم للهلاك والزهوق..

لذا قال «عمر» لـ «أبى بكر».

(1) وهذه كانت عادة سيدنا «عمر» في محاسبة ولاته وعماله وقادته في كل المستويات وفى مختلف الديار.

(2) عثرت: سقطت ، وأرض السواد: سواد العراق.

- إنّ في سيف «خالد» رهقًا وشدة.

وكذلك شِدّة حساسية «عمر» في المسؤولية، فهو يخشى أن يسأله الله تعالى: لماذا لم يُسَوِّ الأرض ويمهّدها لشاةٍ زلت قدمها وسقطت.... في أرض العراق....؟؟

وهو - أيضًا - رضى الله عنه- لم يحاسِبْ «خالدًا» فقط.. على ما جمعه من مال، وما حازَهُ من ضِياع، بل حاسَبَ كل إنسانٍ في هذا الصَّدد، خصوصًا الذين هم على مستوى القيادة والمسؤولية.

محاسَبَةُ «عُمَر» لـ «خالد»

استدْعاهُ إليه وحاسَبَهُ، ثم قَبَض إلى بَيْت المال جزءًا من ثروة «خالد».

ويُقال بأنه قد وجّه إليه كلامًا قاسيًا شديدًا.

ولقد سئل «عمر» -رضى الله عنه- عن الدافع إلى ذلك وسببه، فكان جوابه في غاية الوضوح والبساطة والصِّدق.

لقد خشى على الناس من الفتْنة...، فَلَيس النّصْر في المعارك والميادين وقفًا على «خالد» وَحدَه، إنما النصر من عند الله.

وخشى -أيضًا- على «خالد» نفسه حتى لايأخذه الغُرور والإعجاب بالنفس، وهذه أول فتنة الشيطان.

«خالد» في «حمص»

بعد أن جرد «خالد» -رضى الله عنه- من كُلّ عمل عسكرى -تقريبًا- عاد إلى «حمص» حيث اختار الإقامة هناك، ولزم دارَهُ فيها، متواريًا عن الأنظار والأسماع..

وكانت عزلة قبلها «خالد» بطيب خاطر ورضى نفس، ليعطى الدليل على وجوب طاعة ولى الأمر، وليترك لغيره من بعده أن يتصدروا للقيادة ويقوموا بواجب الجهاد.

وهكذا يكون سيدنا «خالد» -رضى الله عنه- مثلًا أعلى في القيادة بطلًا مجاهدًا يتصدر الصفوف، وجنديًّا عاديًا في خضم الجيش... يلتزم بأوامر قادته ورؤسائه من طاعةٍ للأوامر... وتنفيذ لتوجيهات أمير المؤمنين.

لا نامَتْ أَعْين الجُبناء

وفي سنة إحدى وعشرين هجرية كانت وفاة البطل.. ولقد سبق ذلك مرض ألمّ به وألزمه الفراش، وعانى منه كثيرًا..

وكان يردّد كلماته المأثورة.

- لقد خُضْتُ بضعًا وسبعين معركة، وليس في جسمى موضع إلا وفيه أَثَرُ ضربة سيف أو طعنة رمح، وها أنا أموت على فراشى، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

رضى الله عن سيْف الله «خالد بن الوليد» جزاء ما قدم وأعطى، وجاهد وبذل وضحّى وأثابه من لدنه أعظم الثواب وأجزله، وأنزله من رضوانه أكرم منزل وأرفعه.

خَاتِمَة

بُنَى العزيز:

كان من وصايا «أبى بكر» -رضى الله عنه- لـ «خالد»في إحدى رسائله إليه عبارة تقول:

- [احْرص على الموْت توهب لَكَ الحياة].

ولقد سارت هذه الحكمة السامية على ألسنة الناس وأقلامهم طوال العشرات من السنين.

والظاهر أنها صادفت من «خالد» -رضى الله عنه- موقعًا ملائمًا، من عقله.. وطبعه..، فكان في كل لحظة من لحظات حياته وتردُّد أنفاسه يعيش للمعركة، ويحرص بالفعل على أن يقذف بنفسه في أتونها ومعْمعها، لايبالى بالموت ولايهتم به، فالحياة فيما بعد عنوانها الكرامة والشرف.

سواء كتبت له الشهادة في سبيل الله، أم كتب له البقاء على قيد الحياة...، وهذا يابنى العزيز- ما أثر عن رسولنا الأكرم ونبينا الأعظم ﷺ من أن المجاهد في سبيل الله، والمقاتل من أجل رفعة كلمته ونشر لوائه، بين إحدى الحُسْنَيَيْن: النصر.. أو الشهادة.

وأرجو مخلصًا أن تكون قد استوعبت المُثُل العليا التى عرضناها خلال رحلة حياة «سيف الله» - «خالد بن الوليد» رضى الله عنه.، وأن تكون قد تفهَّمت معانيها وأغراضها وأهدافها، وأدركت مراميها وأبعادها..، وأن تتمثلها قُدوةً صالحة لك ولمجتمعك وأمَّتك.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

الفهرس

الموضوع	الصفحة
بين يَدَي «خالد»	3
إنَّهُ فكَّر وقَدَّر.. ثُم قُتِلَ كَيْف قَدَّر..	6
نَشْأَةُ «خالد»	7
في يَوْمِ «أُحُدٍ»	8
مفاجَأَةُ «خالد»	8
يَوْم «الْحُدَيبية»	9
الإيمان والجهاد في سبيل الله	10
إسلامُهُ - رَضِيَ الله عَنْه	11
أيْن «خالد»؟؟	12
أَوَّل الميادين	14
«خالدٌ» من الجنديَّة إلى القيادة	15
فَتْحُ «مَكَّة»	17
إلى «بَني خُذَيْمَةَ مِنْ «كنانة»	18
من «حُنَيْن» إلى «أَوْطاس» و «الطائف»	20
إلى «بني الحارث بن كعب ثُم الحجّ مَعَ رسُول الله ﷺ	22
القائد المناسب أو [الرّجُل المناسب في المكان المناسب]	26
لَنْ أَشيم سَيْفًا سلَّهُ الله على المشركين!	31
أَخْطَرُ حروب الرِّدَّة: حرب اليمامة	31
«حديقةُ المَوْت»	33
البطل في الميْدان...	37
معارك «خالد»	38
حجُّ خالد سرًّا	48
رَأْيُ «ابن العاص» -رضي الله عنه-	50
«خالد» إلى «الشام»	50
أعظم مغامرة عسكرية عرفها التاريخ	51
تدبير آخر	52
بيْن اليأْس والرَّجاء	52
ضعف البصر وقوة البصيرة	53

ذكاءُ «خالد» وفطنته	53
تفادى «الرُّوم»	53
في «اليرْموك»	54
القيادة الموحّدة والتنظيم الجديد	54
«الكراديس»	56
ما أكثر الرُّوم!!!	57
حيَّ على الجهاد	58
المعركة	58
المبايعةُ على الشهادة	60
أخلاق الإسلام	61
الْحَسْم...!	61
فتحُ «دمشق»	63
من ناحية «خالد» رضي الله عنه	64
الصُّلح	65
من «دمشق» إلى «فِحْل»	65
وإلى «حمْص»!!	65
فَتْح «اللاذقية»	66
خطة مُبْتَكرة	67
إلى «حمص للمرّة الثانية	68
خالد في مواجهة «الروم» عند «حِمْص»	69
فَتْحُ «بَيْتِ المقدس»	69
رؤيا «البطريق»	70
«الفاروق» في «بيت المقدس»	71
موكب «أمير المؤمنين»	72
مسجد «عمر»	72
عزل «خالد» «للمرَّة الثانية»!!	73
مبادئ «عمر» -رضي الله عنه-	74
محاسَبَةُ «عُمَر» لـ «خالد»	75
«خالد» في «حمص»	75
لا نامت أَعْين الجُبناء	76
الخاتمة	78